حبيب

1204
١٢٠٤

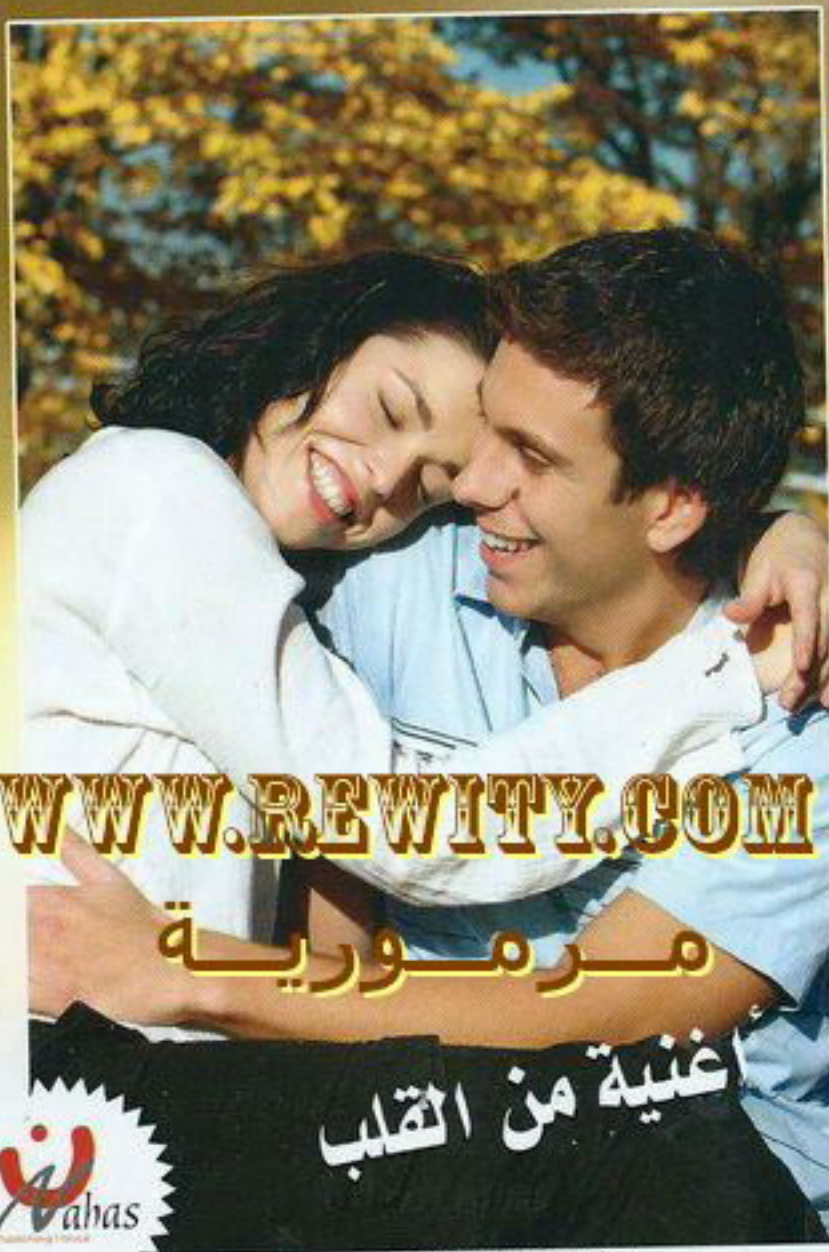

WWW.REWITY.COM

مرمورية

أغنية من القلب

Wahas Publishing House

صادر عن دار م. النحاس

أغنية من القلب

الظروف التي رافقت حياة مادلين لم تكن لتسمح لها بغير القليل من الدروس الاساسية، لقنت نفسها العزف لاشهر عازفي الموسيقى مثل باخ، شوبان وموزار. وهي آلان في ربيعها الخامس والعشرين وأصبحت بارعة بصورة تكفي لتقوم بتدريس الموسيقى للاطفال. وكانت راضية في حياتها حتى بدأت تعزف موسيقى الياس شيبرد، وعلى حين غرة، وقعت في الحب للمرة الثانية في حياتها ولكنه حب يائس.

52-87000-34707-5

اغنية من القلب

ستصدح قاعة المحاضرات، لهذه الأمسية على الأقل، بموسيقاه.
بل موسيقاها هي، لأنها هكذا صارت تنظر الى اعماله الجديدة، عروض الألحان، موسيقى الأفلام والأغاني الشعبية جعلت منه إنسانا مشهورا. ولكن فجأة، ومنذ ما يقارب السنتين، تغيرت طبيعة الموسيقى التي كان يعزفها، وصارت اكثر اصطباغا بالحزن. شعرت بصدى يأسها يدوي في ألحانه الحزينة والمثيرة للمشاعر، وسمعت صدى وحدتها في صوت الانغام، كأنه كان يحدثها عبر موسيقاه، وكأنها هي الأخرى تكلمه حين تعزفها.

الفصل الأول

جلست مادلين في الظلال المظلمة في قاعة المحاضرات الكبيرة، ذقنها مرفوعة وعيناها مغمضتان. عندما تنفست، تحركت بمحاذاة ذقنها خصلة شعر خطها الشيب، ولكن، ما خلا ذلك ولولا ارتعاش انامله الخفيف في حركة آلية على حضنها لكانت ساكنة تماما. بدا الشحوب على قسمات وجهها الباهت كلون شعرها. تعتريها هذا الحالة كلما غادرت شقتها في مانهاتن. فنظرات الغرباء المحدقة إليها بازدراء قد دفعت بها الى تفضيل البقاء في بيتها، ولكن هذا اليوم كان مميزاً في حياتها، فهي لم تهتم بالنظرات الفظة، ولم تنتبه لها. عادت قسمات وجهها لتستعيد صفاءها في تلك الأثناء، الأمر غير المألوف في تلك القاعة، حيث كانت الوجوه، في معظمها مشدودة بإحكام. وطافت مادلين بنظرها على المتبارين الآخرين الموزعين بين مئات المقاعد الشاغرة. وتكوّن لديها رأي في ان معظمهم من عازفي البيانو المحترفين ولكنهم يغردون خارج سربهم في مباراة سوف يحظر عليهم فيها عزف الموسيقى الكلاسيكية. وقد تناهى الى مسمعها تذمر بعض الذين كانوا جالسين في المقاعد القريبة منها. تمتم شاب صغير:«ماذا يريد مؤلف موسيقى مشهور

مثل الياس شيبرد من عازف بيانو كلاسيكي؟»
اجابه رفيقه:«ومن تراه يأبه، طالما انه يملك المال ليسلم جوائز كهذه صدقني لأعزف أي شيء يرغب في سماعه. إلا ان المشكلة تكمن في اني لست متأكداً من كوني استطيع عزف الموسيقى التي تروق له.»
اخذت مادلين تتفرس في وجوههم وهي تسبر غور العصبية الظاهرة فيها... الذي امست تتنشقه مع روائح العطور التي كانوا قد تخضبوا بها... وبتجرد مطلق، شعرت بالشفقة عليهم. فهي لم تحضر الاحتفال لتنال رضى أحد، بل جاءت من أجل الجائزة المالية فقط. حتى ان الجائزة المرصدة لمن يتبوأ المركز العاشر كانت تعتبر ثروة في حد ذاتها، اما امكانية احتلالها للمراكز الأولى المتقدمة، فلم تخطر على بالها قط. فهي، على أي حال لم تكن محترفة، وإنما مجرد مدرسة بيانو تعمل في نيويورك وتعيش عيشة مقتصدة. التفاؤل كان حالة ذهنية ذهبت مع أيام طفولتها.
ذكريات الطفولة هذه قد وضعت على رف النسيان وقد وسمها الزمان بختمة وصارت أشبه بأوراق قديمة لا جدوى منها، مزدحمة داخل علبة دفعت الى اقصى الخزانة. ولكن، في أوقات كهذه، عندما تكون محبطة، كانت هذه الذكريات تزحف الى افكارها، كبقعة على بساط تظهر مرة بعد

الاخرى، مهما تعرض ذلك البساط للتنظيف والفرك.
فتاة يتيمة العبارة طبعت في ذهنها وكأنها تعليق على وجودها إثر ظروف ولادتها. فقد كان والدها رجلاً غير معروف، اما والدتها فكانت مراهقة يائسة لم تنعم بطفولتها...
دلفت مادلين هذا العالم، غير متوقع حضورها وغير مرحب بوجودها، محطمة بذلك حياة شابة قبل ان تتنفس انفاسها الأولى.
علمت بعد سنوات ان مؤسسة الرعاية الخيرية قد اضفت عليها لقباً آخر اكثر سوءاً من سلفه:(صعبة المراس) فلم تدر كيف حازت على هذا اللقب الجديد، بل شكت في ان سمتها الغريبة الشاحبة قد كانت السبب في نفور الازواج الشبان الذين يحلمون بأطفال متوردي الوجنات، ممتلئي صحة، ذوي عيون زرقاء صافية، وثغور كالبراعم.
لكن مهما كانت الاسباب، فقد كانت طفولتها سلسلة من الذكريات عن بيوت الرعاية، أماكن جيدة، في معظمها، صالحة، ويشرف عليها اناس مدركون بالمهمة المناطة بهم، لكنهم ظهروا وغابوا من حياتها كالرمال المنسابة من بين أناملها.
مادلين الطفلة تعلمت باكراً ان ليس هناك من اتحاد دائم، لا عاطفة، مهما تناهت في صدقها، تدوم.
ومادلين الشابة لا تجد سبباً يدعوها لأن تتحول عن

معتقدها هذا. العلاقة الوحيدة التي اتيحت لها ان تسبر غورها كانت تلك القائمة بينها وبين تلك الآلة الجامدة، البيانو، مع ان معظم الناس قد يعتبر هذا اعترافاً مأساوياً لحياة فارغة، مادلين لم تنعم بأكثر من ذلك، وقد كان كافياً بالنسبة لها.

اول سيد اقامت عندها كانت قد اجلستها على مقعد البيانو عندما كانت لا تزال طفلة تحبو. وقد كوفئت في حينها بابتسامة فيها الكثير من الدهشة والشفقة من راعيتها الوحيدة الصغيرة. فلوحة البيانو بمفاتيحها البيضاء والتي كانت تبدو لها كأسنان شريرة، راحت تعطي الحاناً سحرية مدهشة، وهكذا عشقت مادلين تلك الآلة ووقعت في غرامها.

الظروف التي رافقت حياتها لم تكن لتسمح لها بغير القليل من الدروس الأساسية، ولكنها كانت كافية. متسلحة بمعظم التعليمات الأساسية، لقنت مادلين نفسها العزف لأشهر عازفي الموسيقى، باخ، وشوبان، وبيتهوفن وموزار، والآن، وهي في ربيعها الخامس والعشرين، اصبحت بارعة بصورة تكفي لتقوم بمحاولة تدريس الاطفال ما اضطرت ان تدرّسه لنفسها. وقد كانت على العموم راضية، او على الاقل هكذا كانت حتى السنتين الماضيتين. حين بدأت تعزف موسيقى الياس شيبرد، وعلى حين غرة، وقعت في الحب للمرة الثانية في حياتها.

مجرد ذكر اسمه يجعلها مرهفة. فتحت عينيها الواسعتين الرماديتين اللتين كانتا اشبه ببراري المناطق الباردة. رمقت المسرح المشع بأنواره، بعيداً أمامها، وشاهدت أحد العمال وهو يفتح غطاء البيانو الضخم، ويجهز منصة الموسيقى ويتفحّص الميكروفون على المنصة الى يمين المسرح.

سوف تبدأ قريباً مباراة الياس شيبرد السنوية الأولى للعزف على البيانو، وستصدح قاعة المحاضرات، لهذه الأمسية على الأقل، بموسيقاه.

بل موسيقاها هي، لأنها هكذا صارت تنظر الى اعماله الجديدة، عروض الألحان، موسيقى الأفلام والأغاني الشعبية جعلت منه إنساناً مشهوراً. ولكن فجأة، ومنذ ما يقارب السنتين، تغيرت طبيعة الموسيقى التي كان يعزفها، وصارت اكثر اصطباغاً بالحزن. شعرت بصدى يأسها يدوي في ألحانه الحزينة والمثيرة للمشاعر، وسمعت صدى وحدتها في صوت الانغام، كأنه كان يحدثها عبر موسيقاه، وكأنها هي الأخرى تكلمه حين تعزفها.

للأسف، العالم لم يشاطرها رأيها. فقد حمل النقاد على آخر أعماله الموسيقية بالنقد والتجريح، وتوقف منتجو الإذاعة والتلفزة عن الاستعانة به لإستخدام موسيقاه في افلامهم ومسرحياتهم، ولم تعد الجماهير تحتشد لحضور حفلاته.

«جوناثان باركس؟» وجاءت المناداة من المسرح الذي راحت أنواره تخبو رويدا رويدا فيما أخلى احد المتبارين مقعده وسط القاعة ومشى بخطى ثابتة في الممر.
تململت مادلين قليلاً في مقعدها وشدت على ذراعي ذلك المقعد، وقد استعادت هدوءها، لكن عينيها شعّتا بانتظار من سيكون.
كان جوناثان باركس رجلاً طويل القامة، نحيل الوجه، ذا شعر طويل أشقر، وقسمات بارزة. الصورة النموذجية لعازف البيانو الطموح فيما يجلس أمام الآلة، رأسه مردود الى الخلف وأنامله الطويلة مترامية على المفاتيح.
اغمضت مادلين عينيها للنغمات الأولى المتألقة، متهيئة للانتقال مع الجمال البائس لإحدى مقطوعات شيبرد، لكن بعد فاصلة موسيقية، فتحت عينيها وتجهمت. كان باركس يعزف المقطوعة التي اخطأ في اختيارها. ببراعته المشهودة، كان لا يتبع التوقيت الصحيح مدخلاً عاطفة مفرطة لم تكن متناسقة مع روح القطعة في سهولتها وايقاعها.
اخيرا انهى باركس مقطوعته. فتبعه متبار آخر، وآخر، فآخر، الى ان توقفت مادلين عن سماع الموسيقى الصادحة من المسرح وسمعت الموسيقى فقط في ذهنها، كما يمكن ان تعزفها.
اخيراً، وبعد ساعات، جاءت المناداة على اسمها.

«مادلين شمبرز؟» خصائص المسرح الصوتية قد امتصت اسمها لتجعله أكثر رونقا.
قالت مادلين:«انا هنا.» وقفت بتؤدة وقد تشنجت بعد جلوس طويل. فقد كانت آخر المتبارين. ولمحت، وهي تدنو من المسرح، ان القاعة قد باتت خاوية تقريبا.
«هل انت جاهزة يا آنسة شمبرز؟» جاءها الصوت من وراء وهج الاضواء في مقدمة خشبة المسرح فيما كانت تجلس امام البيانو. صوتا انثويا ناعما واختير خصيصاً للمناسبة، لتهدئة اعصاب المتبارين المرهقة.
اومأت برأسها وهي تبتسم باحترام كلي امام الآلة الموسيقية الرائعة والتي كانت تختلف عن آلتها القديمة في البيت:«نعم.»
هذه القطعة مهداة لك، يا سيد شيبرد، فكرت بصمت. اتعرفت عليها أم لا، ولكن هذه هي الطريقة التي ستصدح بها موسيقاك.
لمست أناملها المفاتيح في مداعبة لطيفة، وأصلحت جلستها قليلاً الى أعلى، وبدأت، فيما روح انسان لم تكن قد التقته، تنبعث من بين يديها.
في الصف العاشر من القاعة، بدا الهدوء فجأة على وجه رجل فيما عيناه الخضراوان الداكنتان مسمرتان الى المسرح.
بعد ساعتين، كانت مادلين في شقتها الصغيرة المؤلفة من غرفة نوم واحدة وشرعت في تبديل حذائها

وثيابها. وانتعلت خفاً ولبست فستانها الابيض المجعد. وأزالت الاصباغ عن وجهها، ثم وقفت أمام المرآة في غرفة نومها وراحت تسرح شعرها، الى ان اصبح شبيهاً بهالة متكسرة حول كتفيها وقد خبا لونها. توقفت وسط حركاتها النظامية المتكررة، وضاقت حدقتاها وهي تتفحص رموشها الداكنة الكثيفة حول عينين كالأحجار الرمادية المثلجة. لم يكن يعيبها ان يكون شعرها وعيناها وبشرتها فاتحة اللون حتى الشفافية، رغم ان رموشها الداكنة تبدو كأنها تعود لشخص آخر...

تنهدت وهي تتحول عن المرآة، وقد آنست ارتياحاً في شقتها بعيداً عن نظرات الغرباء.

لم تكد تخطو وسط فوضى اثاثها في الصالون وهي في طريقها الى المطبخ، حتى سمعت قرعاً عنيفاً على الباب. فتغيرت ملامحها. مشت الى الباب وفتحته قليلاً بتردد، وألقت بنظرة خاطفة من جانب الباب.

«مبروك.»

ارتفعت عينا مادلين قليلاً الى أعلى لتطلا على قسمات رجل في الظلمة لم تره من قبل. فقالت وهي تنظر في الضوء الخافت في الرواق:«استميحك عذراً؟»

قال:«لقد قلت لك مبروك، فهذا لك.»

كان ممسكاً بمغلف أبيض لم تستطع تمييزه. وبحركة بسيطة من رأسه استطاعت مادلين ان تتبين عينيه

وقد غمرهما النور، فحدقت فيهما، وقد سحرها لونهما الأخضر المفرط في بريقه، لا يمكن ان تجد له مثيلاً إلا في خضرة الساتين في عز ربيعها.

أخذ تحديقها الصامت إليه بعض الوقت، وهو على ما يبدو قد آنس به. ثم أحنى رأسه قليلاً:«يوجد شيك بقيمة كبيرة من المال داخل هذا المظروف يا آنسة شمبرز.»

تنهدت مادلين وقد تقوّس احد حاجبيها:«حقاً؟ حسناً، إنه شيء بديع، ولكنني لست بصدد بيع أي شيء شكراً.»

ظهرت على وجهه ضحكة فيما كانت تهم بإغلاق الباب. قال:«انها الجائزة الكبرى لمسابقة العزف يا آنسة شمبرز. انت فزت بها.»

توقفت انفاسها وضاقت حدقتاها وقد ارتابت للأمر. «هذا مستحيل؟ لقد قيل ان النتيجة ستبلغني بواسطة البريد.»

«كل المتبارين الآخرين سيبلغون بواسطة البريد. اما الفائز الأول فيتسلم جائزته. ألا توافقينني الرأي؟»

احست مادلين ان قواها قد بدأت تخونها وهي تحاول استيعاب النبأ وتتذكر القيمة المالية للجائزة الأولى. همست:«احقاً ربحت؟» وتضايقت من تهدج صوتها، لكنها لم تستطع التحكم بنبرته:«هل انت متأكد؟»

«بالطبع. انا جازم في ذلك.»

اومأت برأسها ببطء، وقد تخدرت افكارها. فقد كانت تحلم بأحلام عادية جداً فيما مضى ولم يخطر ببالها فكرة ان يكون الياس شيبرد قد جعلها في المركز الأول، هذا فضلاً عن إرسال أحدهم لتسليمها الجائزة في تلك الليلة.

تنبهت فجأة الى أنه لا يزال واقفاً في الرواق، ففتحت الباب على مصراعيه وقالت:«ارجوك تفضل.» وأشارت بيدها الى بعض الآرائك والكراسي التي كانت محتشدة في إحدى زوايا غرفة الجلوس وقد بدت هزيلة في حجمها امام البيانو الضخم الذي اقتصدت كثيراً كي تشتريه. «تفضل بالجلوس، فقد كنت في صدد تحضير القهوة الايرلندية...»

اختنقت العبارات في حنجرتها حين استدار فجأة ليواجهها، فوقع نظرها عليه للمرة الأولى وقد غمره النور. وعلى الفور، على الرغم من انها لم تلتقيه قبلاً او ترنو الى صورته، لقد عرفته، إنه الياس شيبرد. فما كان يجذبها في موسيقاه وجدته في وجهه، وقد أدهشتها سرعتها في التعرف عليه. فقد كانت متيمة بفكر الياس شيبرد وروحه اللذين كانا وراء موسيقاه خلال السنتين الماضيتين، إلا انها لم تكن لتتوقع ان ترتسم تلك الروح على وجه الرجل.

تمتمت:«انت الياس شيبرد.» وهي تخشى، ان ترف عينيها فتزول الرؤية من أمامها.

حملق بها الى ما بدا أنه زمن طويل، ثم هز برأسه. بدا في تعابير وجهه الداكنة، حزيناً مثل موسيقاه، بحاجبين كثيفين فوق عينيه الخضراوين الرائعتين وفم مشقوق وسط فكه المربع. إلا أنها احست ان هناك شيئاً ما وراء تلك الصورة القاتمة، شيء نظيف وبراق وقاس جعلها تفكر بلمعان اشعة الشمس فوق المحيط.

دهشت حين تكلم وتساءلت كم مضى عليها وهي واقفة هنا، تحملق به:«تبدو القهوة في أوانها. شكراً.» اجابت بصوت خال من التعبير:«انت على الرحب والسعة.» إلا انها بقيت ساكنة، عاجزة عن رفع نظرها عنه. وأخيراً اجبرت نفسها على الذهاب الى المطبخ.

تحضير القهوة الايرلندية أمر سهل، بتحضيرها مئات المرات قبل ذلك، إلا ان عملية تحضيرها تلك الليلة كانت معقدة، ومتجاوزة قدراتها.

عندما عادت الى غرفة الطعام، وجدته جالساً على الأريكة، وهو يتابع بنظره اقترابها بارتباك حذر. وتلامست أناملهما للحظة وهو يتناول كوب القهوة من يدها. أما هي فغرقت في كرسيها مقابل الأريكة وقد اربكتها الحرارة التي سببتها ملامسته.

راحا يرشفان القهوة من كوبيهما حين قال:«لقد اعجبني أداؤك اليوم.»

ارتجفت لسماع صوته المتماوج في بحة. تجنبت عينيه، وركزت على شعره الاسود المرفوع وراء أذنيه والملفوف على مستوى ياقة القميص الأبيض الذي، تراه للمرة الأولى، أرخى ربطة العنق ليضعها جانبا.
«لم تشاركي في مباراة كهذه قبلا، أليس كذلك؟»
«كلا.» بدأت تهز رأسها. ثم كان عليها تذكير نفسها بالتوقف. فسألته: «وهل كان ذلك واضحا؟»
قال وهو يحاول ان يبتسم:«بالطبع لا. انا اتابع كل المباريات ولكنت تذكرت عازفة مثلك.»
اخذت مادلين رشفة اخرى من قهوتها وشعرت بالدفء يسري في حنجرتها. «انا في الحقيقة مدرّسة بيانو ولست بعازفة.»
ابتسم :«ولم يكن شكسبير بأكثر من كاتب.»
لم تتح لحدقيتها ان تتسعا بعد تلك المقارنة الصارخة في محتواها، إذ عاد ليصدمها ثانية.
«اريد ان استخدمك، يا آنسة شمبرز. اريدك ان تعملي معي دواماً كاملاً في مشروع مهم، تعزفي موسيقاي، او ربما تسجيلها، إذا اقتضى الأمر.»
ترددت هنيهة:«حسنا.»
«حسناً؟ أهذا كل ما عندك لتقوليه؟»
تجهمت لا تدري ما تفعل، تتساءل لِمَ ردها قد أدهشه.
«ألا تريدين ان تسألي عن الأجر؟ وشروط العمل؟ أي شيء آخر؟»

اومأت برأسها غير مكترثة. وقالت:«انك الياس شيبرد.» كأن هذا يفسر كل شيء.
تفحصها بهدوء للحظة:«ماذا تعرفين عني؟»
همست:«كل شيء.» ثم قطبت جبينها وقد فقهت كم هو احمق ما تفوهت به:«لا شيء.» اردفت بارتباك.
«ايهما الجواب الصحيح؟»
نظرت في كوبها وقد تغضن حاجبيها الشاحبتين، وعضت على شفتها وقد تملكها الرعب. ماذا تعرف عن الياس شيبرد؟ فقد كان اطلاعها على موسيقاه خجولا: ألحانه الاستعراضية، وأغانيه الشعبية، وموسيقى الأفلام التي كتبها على مدى العشر سنوات الماضية، لم تؤثر عليها. «إني على اطلاع فقط بالموسيقى التي كتبتها خلال السنتين الأخيرتين. هذا كل شيء.»
قال بهدوء:«هذا كل شيء.»
شعرت في اعماقها بشيء يخفق بقوة.
سمعته يقول بعد لحظة:«حسنا. هذه القواعد الأساسية. سنعمل في روزوود، بيتي في الجبل. فهناك لن يزعجنا احد.» حاولت الابتسامة ان تجد زوايا فمها. واضاف:«عليك ان تتركي بيتك، ورفاقك، وأهلك، وتلامذتك، وحياتك الاجتماعية، كل حياتك، في الواقع، طالما العمل يدوم.»
اومأت برأسها بصمت، وهي تنظر الى كوبها

وتتساءل كيف بإمكانها احتواء كل هذه السعادة، وكيف لها ان تبقى جالسة وهي تتكلف الهدوء في حين انها تريد القفز والصراخ و...

قال:«سوف تكون الساعات رهيبة،فأنا عديم الصبر، حاد الطبع ويستحيل العمل معي...»جازفت مادلين بنظرة الى أعلى، الى حيث مخرج صوته الخشن:«في الحقيقة، الشيء الوحيد اللائق في هذا العمل هو الأجر. استطيع ان اعدك انه سيكون ممتازا.»

حدقت مادلين في شرخ بارز في ورق الجدران خلفه، وهي تبتسم لما كان يعتقده مهماً من أمر الساعات وشروط العمل والأجر. كيف عليها ان تخبره؟ وكيف لها ان تفسر له ان موسيقاه هي أملها الوحيد في حياتها الرتيبة؟ وأنها احست بانتمائها إليه منذ اللحظة التي بدأت تعزف فيها موسيقاه؟ وما هجرانها حياتها من أجل اللحاق به سوى الجانب الشكلي للإلتزام المعنوي والروحي الذي كانت قد قطعته على نفسها منذ زمن طويل.

قالت بهدوء:«لقد عرضت عليّ عملاً، وأنا قبلت به، فهل انت تتراجع عن عرضك الآن؟»

تفرس وجهها وكأنه يفتش عن علامة وهن فيه، اجاب:«لا. فلا يزال العرض قائماً. لست هازئا.»

اومأت برأسها بحزم:«حسنا.» ولسبب ما احبطت ثقتها عزيمته.

راحت حدقتاه الخضراوان تضيقان قليلاً وقال محذرا:«نحن لسنا في مجال اللهو، يا آنسة شيبرز. موسيقاي هي الشيء الوحيد الذي يهمني. ليس لدي الوقت او الرغبة في ان ادغدغ عواطف النساء. في الحقيقة، لا املك صبراً على التعاطي معهن. والعمل معي هو الاقتراح الوحيد الذي لدي.»

نظرت مادلين إليه بهدوء وهي تحاول ان لا تبتسم:«حسنا، يا سيد شيبرد، لقد ربحت. كم تريد لقاء عملك؟ انا سأدفع لك.»

استغرق في ضحكات خرقاء ناشزة حتى كادت ان تتساءل في ما إذا كان ضحك قبل ذلك، ثم قال وطيف ابتسامة لا يزال مرتسماً على زوايا فمه:«حسنا، يا آنسة شمبرز، وضبي اغراضك، لمغادرة المدينة لفترة من الوقت...»

«كم من الوقت؟»

«هذا يتوقف على أمور كثيرة. قد يكون لشهر...» توقف لحظة وهو يبحث في وجهها عن تعبير غريب:«او لأكثر.»

نظرت إليه من دون ان تتفوه بشيء وقطب جبينه عندما لاحظ شيئا على وجهها.

«اعتقد اننا سننجح بالعمل معاً، يا آنسة شمبرز.» وانحنى قليلا الى الامام، امسك بإحدى يديها ووضعها بين يديه وشرع يقلبها ضمن راحتيه وهو

يتفرس فيها بإعجاب وكأنها قطعة ثمينة بين يديه. وكانت ملامسته لها متجردة، فقد كان في صدد تفحص الآلة التي ستنجز موسيقاه، أما هي، ربما لذلك السبب، لم تمتعض كما كانت تفعل لدى ملامسة أحد ما لها.

أمرها من دون ان يرفع نظره:«اعطني يدك الأخرى.» وضعت فنجانها على طاولة قريبة منها ومدت له يدها الأخرى صاغرة. امسك بهما بين راحتيه وبسط أنامله تحت أناملها لتبسط أناملها هي ايضاً. كانت بين يدي طبيب يقوم على فحصها، وراحت تراقبه وهي غافلة وكأنها قد سلخت عن تلك الاجزاء من جسمها التي كان قد لمسها.

سألها فجأة:«ما هو مدى أصابعك؟»

اجابت:«عشرة مفاتيح.» ومطت انامله على وسعها فوق راحته لتبيان ذلك، وفجأة، من دون أي انذار، حدث شيء.

شعرت بأطراف أناملها وكأنها تحترق وهي ترسم خطوطاً من اللهب على طول راحتيه الدقيقتين. وبدا واضحاً ان الشعور عينه قد انتابه، إذ جحظت عيناه وقد اثقلتهما الدهشة تماماً كما فعلت عيناها. وانسحب في سرعة خاطفة متنفساً بصوت مسموع.

جمدت مادلين في مكانها عاجزة عن الإتيان بأي

حركة وهي مأخوذة بالإشارات العجيبة التي كانت تتسابق طرداً وعكساً من يديها الى دماغها، إضافة الى طبيعة نظرته المغناطيسية. وراحت حدقتاه تتسعان حتى كاد اللون الأخضر ان يزول تاركاً مكانه لوناً اسود على شكل دائرة. ولسبب ما ارعبها ذلك.

سحبت يدها من قبضته بخوف ظاهر وعيناها متسعتان من الدهشة. بقيت عيونهما معلقة في نظرة طويلة، اغمض عينيه، وتحول برأسه بعيداً عنها ورفع منكبيه الى أعلى وكأن شيئاً لم يحدث.

قال باختصار:«كوني جاهزة في العاشرة من صباح غد.» ووقف عند الباب. تقريباً قبل ان تتنبه لحركته. «سأريك روزوود، ثم نعمل على التفاصيل.»

فيما كان يهم بالخروج، استدار وحدق بها وهي ما تزال جالسة حيث تركها. اما ملامحه فكانت قاتمة وواعدة وكأنه توجه إليها اتهاماً خطيراً.

قال:«لا اعتقد اني سمعت عزف موسيقاي حقيقة إلا يوم سمعتك تعزفينها.» اضاف بنبرة فيها وعيد:«لن اسمح بشيء آخر ان يتعارض مع ذلك.»

اما مادلين فقد بقيت ساكنة في كرسيها، تحملق في يديها لفترة طويلة بعد مغادرته.

www.rewity.com

الفصل الثاني

استيقظت مادلين في صباح اليوم التالي، وقد غمرتها مسحة من الحزن. أجفلت لدى سماعها ضوضاء السيارات في الشارع، ونظرت شزراً الى نور الصباح الغريب في اشعاعه وهو يدخل من خلال النافذة. على الرغم من خفة وزن الدثار، شعرت به ثقيلاً لا يحتمل على جسمها. فبدأت بإزاحته جانباً، ثم توقفت، وقد تجهمت اساريرها وهي لا تزال مستلقية على فراشها، تحاول ان تتذكر متى انتابها هذا الشعور قبل اليوم، علها تقبض على تلك الذكرى المحيرة المختبئة في تلافيف دماغها.

لقد كان ذلك منذ زمن بعيد... لقد علمت ذلك... جيداً، إلا انها لم تستطع ان تتذكر أوان حدوثه. فقد كان أشبه بشعور طفل صباح العيد، إلا أنه لم يكن الميلاد. مهما يكن، فقد كان امراً اكبر من ذلك وأكثر منه وعداً.

قطبت جبينها، وهي تستجمع ما انقضى من ذكرى، إلا انها عافت كل ذلك لتستسلم للنسيان. فهي ستعمل من الآن فصاعداً مع الياس شيبرد، وستعزف موسيقاه وستسكن معه في منزله.

ارتداؤها الثياب السوداء لم يكن متعمداً، ولكنها

اومأت برأسها علامة الرضى وهي تتفحص انعكاس صورتها في المرآة بعد ان ارتدت ملابسها، إنه يوم اساسي في حياتها، وأصبح من اللائق ان يعكس مظهرها الخارجي احتفالية المناسبة.

انتعلت حذاء اسود وارتدت بنطال جينز ضيق، وقميصاً من الصوف يصل الى أعلى رقبتها في تحدٍ منها لبرد فصل الربيع الذي اقترب حلوله. فهي لم يكن عندها ما يناسب من الثياب للإقامة في بيت جبلي، إلا ما يجب عليها ارتداؤه لعبور الطرق الموحلة والحقول المليئة بالأشواك، والتي كانت قد رأتها في الصور وقرأت عنها في الكتب. فقط شعرها، افسد الصورة الرزينة. رفض البقاء على شكل هامة متعالية، فثار على كتفيها في خصلات ساكنة براقة وبدا عبثياً بسخافة. وكعادتها في كل مرة، تناست مادلين كل شيء عن مظهرها الخارجي في اللحظة التي تحولت فيها عن المرآة.

في تمام الساعة العاشرة فتحت الباب لدى سماعها طرقة شيبرد الحازمة، فابتسمت بارتباك. لقد كان مختلفاً تماماً عما كان عليه في الليلة الماضية.

لقد ارتدى معطفاً خفيفاً فوق كنزة من الصوف بلون الزهر الداكن، مصنوعة من وبر الارنب، او من صوف الغنم، او غيرها من الحياكات الثمينة التي تجعل المرء يرغب في لمسها، وقد أسبغ هذا اللون على

وجهه حالة من الدفء أخفت حزنه الذي بدا عليه في الليلة الماضية. اما شعره فبدا صبيانياً، وقد ردته ريح ربيعية الى الوراء، في حركة مفاجئة، كموجة لطيفة متماوجة فوق جبينه، فالتف حول أذنيه هازئاً بما كان عليه في الأمس بتصفيفته الزلقة، المردودة الى الخلف.

بادرته بنبرةٍ حادة:«تبدو مختلفاً.»

«وأنتِ ايضاً. تبدين رائعة في الأسود.»

كانت ملاحظته شخصية لم تستعد لها. ولم تكن مستعدة لنظرته الثاقبة وتأثيرها عليها. فقد كان ذلك يشبه الى حد بعيد تلك اللحظة الغريبة في الليلة الفائتة حين تحولت العلاقة بينهما، من منطقة الأمان الى منطقة الخطر غير المألوف للجسد. وهذا ما يفسر ردة فعلها العنيفة حين مد يده إليها قائلاً:«هل نذهب؟»

كان سؤالاً بريئاً، لم يخدشها في مضمونه، إلا أنها شعرت على الفور بطعنة من الشعور الذي لازمها في طفولتها، شعور أملت ان لا تختبره مجدداً، لأنه كان يحمل في طياته احتمال خيبة أمل.

حملقت بحزن في يديه الممدودتين وهي تتذكر تلك اليدين اللتين امتدتا إليها في الماضي من أمثال الاندرسن والكروغرز والميلرز وغيرهم من الأوصياء الموقتين الذين جاءوا بها الى منازل هي ايضاً موقتة.

كانوا يسألونها جميعاً:«هل نذهب يا مادلين؟» ويأخذون بيدها ويملأون قلبها املاً في ان منزلهم سيكون مقرها الدائم حبهم لها هو الأبقى على الدوام، إلا ان ذلك لم يكن ليحصل، لأن لا شيء يدوم الى النهاية.

«مادلين؟» كان يمعن نظره في وجهها وقد تغضن جبينه. «هل من خطب؟ هل غيرت رأيك؟»

تنهدت مادلين بعمق وأجبرت على ابتسامة خجولة، ومدت أناملها الى راحة يده، قالت بهدوء:«لا. لم أغير رأيي.»

«هل انت متأكدة، انك جاهزة؟»

قالت بحزم:«انا مستعدة.» فيما كانت تتساءل إذا كان ذلك هو أهم سؤال قد طرح عليها في حياتها او بدا لها كذلك.

قاد الياس السيارة بصمت الى عنوان في الايست سفنتيز وهو احد الاحياء العصرية ذات الارصفة المرصوفة والأبنية المرممة من الحجر الرملي الأسمر والقرميد الأحمر. وهي مختلفة عن زحمة مانهاتن المجنونة، مثل بعد المسافة بين المكانين.

ترجلت مادلين من السيارة فيما الياس يحاول مساعدتها قائلاً:«هذه هي الوقفة الأولى. هناك شخص اريدك ان تتعرفي عليه قبل ان نتابع سيرنا الى روزوود.»

عبث النسيم بشعره مضيفاً عليه شكل شاب هازل فيما هما يرتقيان الدرج، الا ان ذلك لم يكن إلا مجرد وهم من نسج الخيال. فلا شيء كان يدل على ذلك على كل تعابير وجهه، وهو يدق على الباب بالمطرقة النحاسية المصنوعة. كما ان لا شيء من طيش الشباب بدا في عينيه الخضراوين واللتين كانتا تثنيان عليها بصمت وهما منتظران في الردهة.

فتح الباب رجل، مثل آلاف الرجال، فكرت مادلين، ومع ذلك شعرت بأن الباب قد فتح على منظر خلاب لإشراقة شمس يصعب التحديق إليها.

تعلقت نظرات الرجل بنظراتها، فتوردت وجنتاها خجلاً ولم تستطع تفسير ما حصل. وغمغم من دون ان يحول بصره عنها ولو للحظة:«مرحبا، الياس.»

رد الياس بغمغمة مبهمة، فيما ظلت مادلين محملقة في الرجل الواقف في الرواق. كل شيء فيه كان يبعث على الاطمئنان، شعره ذو الخصلات البنية فوق عينين مرحتين ضاحكتين ابتسامة طبيعية. على الرغم من انزعاجها، فقد ردت مادلين على ابتسامته بمثلها، غير قادرة على ان تفعل أي شيء آخر. لقد ملأ شغاف قلبها قبل ان ينبس ببنت شفة.

ادهشها كيف كان ممسكاً بيديها الاثنتين وهو يشد عليهما برقة:«انت ساحرة، يا مادلين.» الياس، شعر خلاب وملامح ساحرة. انها رائعة.»

لم تدر مادلين ان كانت تضحك ام تعبس لإطرائه المستفيض هذا.

«لا تكن سخيفاً، يا دافيد. انها عازفة بيانو، لا عارضة أزياء. وما هو رائع فيها، كامن في يديها. إلقِ نظرة عليهما. فلديها إبداع عظيم.»

بقيت يداها مغلولتين بشدة في يديه. وابتسمت بارتباك فيما كان يأخذها برفق الى الداخل ويغلق الباب خلفه.

«اعتقد احياناً انك توفيت منذ زمن، ولم تدفن. امرأة كهذه، وتريد مني انظر الى يديها؟»

رفت عيناها وهي تحدق به وقد ادهشها ما كان يتفوه به. فقد كانت كاللعبة المطواعة المتخدرة، الفاقدة لحسها، عندما أخذ بيدها المطوية عند المرفق باستئثار ظاهر، وقادها الى غرفة الجلوس المفروشة بفخامة حيث يوجد كرسيان مزدوجان متقابلان في مواجهة موقد النار.

شاهدت على الطاولة المنخفضة بينهما، فنجانين للقهوة وصينية فضية، وضع عليها حلوى صنع هولندا. قادها دافيد لتجلس بجانبه، وعلى الرغم مما كان يثيره التقارب من رجل من انزعاج إلا انها شعرت بالارتياح بالقرب منه.

قام الياس بتقديم دافيد لها:«مادلين شمبرز، أقدم لكِ دافيد ويتني، مديري.»

اضاف دافيد:«والنصف الدافىء والودود لتلك الشراكة. نوع من التوازن أمام هذا العبقري الشرير، إذا فهمت قصدي.»

عبس الياس في وجهه:«حدثها عن المشروع، يا دافيد. فمن أجل ذلك احضرتها الى هنا.» سكب لنفسه فنجاناً من القهوة، ثم وقف فجأة:«سأقوم ببعض الاتصالات الهاتفية قبل ان نغادر الى روزوود.»

راقبه دافيد حتى غادر الغرفة ثم انشغل بسكب القهوة. اعطى مادلين فنجانا، وهو يستدير نصف استدارة، مثنياً عليها بضحكة غريبة:«تعزفين على البيانو، ايضاً؟»

قطبت جبينها وهي تنظر إليه من فوق حافة فنجانها، مستغربة سؤاله. فما كان منه إلا ان ضحك لسبب ما.

«انتِ واحدة من مليون، أليس كذلك؟ أشعر وكأني أمامَ نعجةٍ بين يدي ذئب شرير. العمل مع الياس لن يكون سهلا البتة، كما تعلمين.»

«هذا ما قاله لي.»

«تلك هي الحقيقة بعينها. لقد أصبح يحب الوحدة خلال السنتين الماضيتين، وان كان قد تعلم قليلاً كيف يتعاطى مع الناس، فإنه الآن نسي ذلك من دون شك. فالموسيقى هي كل ما يهمه في هذه الحياة.»

«اعلم ذلك.»

تجهم وجه دافيد وهو يتململ في كرسيه مغيراً جلسته.

«الغرابة في الموضوع هو موافقتك للعمل معه بهذه السرعة... لست مغرمة به او شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟»

اتسعت حدقتاها وكادت ان تختنق وهي ترشف قهوتها. «لا. فنحن ما كدنا نلتقي. انا فقط... انا فقط... من عشاق موسيقاه، ليس إلا.»

نظر دافيد إليها بإمعان:«ان الياس نسخة عن موسيقاه.»

عضت على شفتيها بتوتر، وهي حائرة فيما تقول. حاول ان يبتسم، ثم غير الموضوع فجأة:«مهنته متوقفة على مشروعه هذا، كما تعلمين. ونوعاً ما، عليك ايضا.»

«عليّ؟» همست مادلين:«ماذا تعني؟»

شرب دافيد ما تبقى في فنجانه وكأنها جرعة ماء وأعاد الفنجان الى الطبق. شعرت مادلين كيف كان يزن كل كلمة بتؤدة قبل ان يتكلم:«لقد مر وقت لم يستطع فيه ان يؤلف، ليلبي كل الطلبات المنهمرة عليه. كل الفرق الموسيقية كانت تريد ان تسجل له، وما من منتج إلا وكان يريد شراء اسطواناته...» تنهد وأرخى كتفيه. «... ثم بعد ذلك بسنتين تغير كل شيء. المشكلة تكمن في أنه لا يفقه السبب. لا

يستطيع ان يتبين الفرق بين ما تعود ان يكتبه من ألحان أحبها الجمهور، وبين ما يكتبه الآن. اعتقد بأن عازف البيانو الكلاسيكي عليه ان يتلوّن مع مقتضيات العمل. ولهذا السبب قام بتكفل المباراة.»

كانت مادلين شاردة، تفكر كيف انها بدأت تعشق موسيقاه فيما الآخرون أخذوا يكرهونها سألت:«وماذا حصل بعد ذلك بسنتين؟»

نظر إليها دافيد لبرهة ثم قال بصوت منخفض:«لقد أنهى زواجه.»

جعلت تلك الكلمات مادلين تفكر لبرهة. فلم يطرأ على بالها، قط، بأن يكون مبدع الموسيقى والذي أحبته كإنسان موهوب هو في الحقيقة إنسان عادي كباقي البشر.

قالت بهدوء:«لم أكن اعلم انه كان متزوجاً.»

«لقد كان كذلك... لوقت ما. وبانتهاء الزواج انتهت اشياء كثيرة بالنسبة له، تغيرت موسيقاه، تغيرت حياته...» أبعد بقية الفكرة وأجبر نفسه على الابتسام بطريقة مشرقة:«إلا ان ذلك كله اصبح جزءاً من الماضي، ويفترض بنا ان نتكلم عن المستقبل الآن.»

اعاد سكب القهوة في فنجانيهما واستدار على كرسيه المزدوج ليواجهها. «ستعملين على اسطوانة معدة لأحد الأفلام، فالمنتج صديق قديم له، والحقيقة انه سيخاطر مخاطرة كبيرة في إعطاء الياس هذا

العقد، آخذاً بعين الإعتبار النمط الموسيقي الذي بات يكتبه للعامة مؤخراً. فالجميع أضحى في كره له.»

«اما انت فلا، أليس كذلك؟»

هز دافيد بكتفيه وحول نظره بعيداً بحركة خرقاء. قال:«احياناً... ليس غالباً، لكن احياناً... استمع الى ما يكتبه وأعتقد ان له القدرة على ان يكون من الموسيقيين العظام. هل تعلمين ذلك؟» رمقها منتظراً جواباً.

قالت بهدوء:«انه واحد منهم، على ما اعتقد.»

ارتفع حاجباه قليلاً مما أضفى عليه منظراً وقوراً سرعان ما زال. «من الوجهة التجارية، عليك ان تكوني جيدة التسويق كي تصبحي عظيمة.»

«اعتقد ان في ذلك نوعاً من الجشع. وماذا بشأن... الفن من أجل الفن؟»

هز بكتفيه مستنكراً:«عندما يروق الفن للجميع، وعندما يلامس كل قلب، فتلك هي العظمة، أليس كذلك؟ وهذا ما فقده الياس في موسيقاه... هذا الشيء المحيّر الذي يدغدغ شعور الناس. فلا احد ينكر براعته التقنية في العمل، إلا ان العديد من الناس يعتقدون انه من دون قلب، من دون مشاعر على الإطلاق.»

ابتسمت مادلين بحزن:«إذاً فهم لا يستمعون إليه.»

شعرت كم كان دافيد آسف لها، برغم أنها لم تستطع فهم السبب.

دخل الياس عليهما ونظر الى دافيد ثم الى مادلين وقال:«لقد اتصلت بالاستديو وأفدتهم بأنه سيكون لديهم نموذج من الشريط في مهلة شهر، مما يعني ان علينا ان نعمل من دون ان نضيع ثانية. يا مادلين. تناولي قطعة حلوى وسنأكل في السيارة في طريقنا الى روزوود. وسنتكلم في سائر البنود، بعد ان تطلعي على المكان. هل تأتي معنا، يا دافيد؟»
هز دافيد برأسه:«ليس الآن.» وهو ينظر الى مادلين مبتسماً.

الفصل الثالث

فيما كان الياس منهمكاً في قيادة سيارته وسط زحمة سير خفيفة، صبيحة نهار الأحد، أخذت مادلين تنظر إليه خلسة من مقعدها في سيارته الفخمة. هذا هو الياس شيبرد. اخبرت نفسها مراراً، احد كبار مؤلفي الموسيقى في هذا العصر، على الرغم من النقاد، وإنك جالسة الآن الى جانب رجل مقدر له ان يصبح اسطورة.
لسبب ما كانت تلاقي عناء كبير في تخيله اسطورة. فهو لا يبدو، من الأساطير، وهو جالس خلف المقود يركز اهتمامه فوق الطريق أمامه مثل بقية السائقين العاديين، إنه إنسان من لحم ودم كسائر الاحياء من بني البشر.
قال منبهاً:«قد لا نعود في وقت قريب.» ولم يتجاوزا شارعين بعد.
«لا بأس في ذلك. فأنا لا أدرج مواعيد جديدة لتلامذتي في نهاية الاسبوع.»
«أليس لديك مشاريع هذا المساء؟»
اخفت ابتسامتها وقالت:«لم يكن لدي متسع من الوقت للقيام بما يمليه الواجب الاجتماعي.» اردفت بعد تردد بسيط:«كما أنه ليس لديّ موهبة كبيرة في ذلك.»

WWW.REWITY.COM

استغرب ردها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، وسرعان ما عمّ صمت مطبق بينهما فيما أخذت السيارة تنهب الأرض على الطريق العريضة التي تربط كل المراكز الموجودة على خارطة ولاية نيويورك. غابت اخيراً وراءهما آخر نقاط حدود المدينة وبدأت الطريق تنعطف يمنى ويسرى بزوايا منفرجة. باتجاه قمم الجبال المستديرة السحيقة في قدمها والتي لا يمكن مشاهدتها بسبب بعدها.

استغرقت مادلين في مشاهدة الطبيعة من خلال نافذتها وقد أخذ بمجامع قلبها مشهد الريف وهو يعانق الربيع بعد شتاء طويل قاس وكانت قطعان الماشية تثب مرحاً في مراعيها الجديدة، وفاضت الجداول بمياه الثلوج المتدفقة في الأخاديد التي حفرتها.

كان المنظر لمن سكن الأبنية الحجرية في المدينة أشبه بسجادة مزدانة بالرسوم والصور، لكن بالنسبة لمادلين، فقد كانت الموسيقى معيارها للجمال حتى انها كادت ان تنسى كيف تقدر الأشياء الأخرى حق قدرها.

بعد مضي ساعة تقريباً، استهل الياس حديثه الذي كان قد انقطع بينهما منذ مغادرتهما المدينة:«نحن على وشك ان نصل.» خفف من يرعة السيارة لينعطف في موازاة الطريق السريع.

«حقاً؟» رفت عيناها كمن يستيقظ من شبه حلم.

فقد كانت شاردة لمسافة أميال وهي تحدق في مكان ما من أجهزة القيادة أمامها وهي تدندن إحدى مقطوعاته في ذهنها.

أطلت برأسها من نافذة السيارة وراحت تتأمل طريق الأسفلت الضيق الذي كانت السيارة تنهبه نهباً. ونظرت شزراً الى خميلة من أزهار الربيع في صفرتها الصارخة والمتكوكبة على جانبي الاسفلت.

رمقها الياس بنظرة، فيما كانت السيارة ترتقي صعوداً إحدى المرتفعات ثم تنحدر الى قرية بدت في منظرها أقرب الى الصورة الفوتوغرافية منها الى الواقع المرئي. قال لها:«انها برايتون سكواير.» شارحاً فيما راحت السيارة تخفف من سرعتها وصوت عجلاتها الواهن ينبه الى التحول عن طريق الاسفلت الى آخر من الحجارة المرصوفة:«منزلي على بعد كيلومتر في الجهة الاخرى من البلدة.»

هزت مادلين رأسها بصمت وعيناها مأخوذتان بروعة المحلات القديمة ومظلاتها الملونة الممتدة على طول الشارع الرئيسي وإلى أعمدة الإنارة المصفحة بالحديد والتي كانت تعيد الى الذهن قرناً من الزمن مضى، فيما كان أزهار التوليب البري تفترش مساحة كبيرة من مرج القرية.

فكرت مادلين، وهي تستدير، لا شك في ان كلمة

فاتن قد صيغت لأماكن كهذه، استدارت لتشاهد من خلال النافذة الخلفية في السيارة، القرية وهي تنسحب وراءها. قالت:«إنه لمكان جميل حقا. لقد بدأت أفهم لماذا تعيش هنا.»

اجابها بنبرة باردة:«اعيش هنا لأن هذا يناسبني.»

جعلت مادلين تتساءل ما إذا كانت قد أخطأت بما قد تفوهت به.

أدار مقود سيارته بخفة ومضى في طريق خاصة ضيقة مصفوف على جانبيها، شجيرات متشابكة أخذت تورق حديثا. قال:«هذه روزوود. سترين منزلي بعد هنيهة.»

«لم آت الى منزل يحمل اسماً قبل الآن.»

تقلصت عضلات فكه لبرهة، عادت بعدها للاسترخاء:«لا تكوّني فكرة خاطئة. فهذا المنزل ليس قصراً، والدتي كانت مولعة بالأسماء، هذا كل شيء. وقد أعطت اسماً لكل شيء كانت تملكه، بما في ذلك هذا المكان، وقد بقي الإسم ملازماً له بعد وفاتها.»

«هل كان هذا المكان لوالديك؟»

قال مصححاً ومشدداً على ذكر المفرد:«لوالدتي. لقد انفصلا بعد ولادتي بوقت قصير، ولم تتزوج والدتي بعد ذلك.س

عندما انعطفت السيارة على احد المفارق التي توصلهما الى المنزل مباشرة، استرخت مادلين

واتكأت على النافذة والتصق أنفها على الزجاج. قد تتذكر هذه اللحظة فيما بعد، وستكون شاكرة لأن وجهها قد تحول عنه، إذ انها شعرت بأن قناعها الدفاعي يسقط عن وجهها ليحل مكانه شوق الطفلة التي كانت هي في يوم من الأيام، ودهشة تلك الطفلة نفسها المثيرة للشفقة، عندما تكتشف أنه في بعض الأحيان تصبح الأوهام حقيقة.

المنزل. رسمت على شفتيها تلك الكلمة الغريبة عنها بصمت، فيما لهاثها قد ترك الزجاج أمامها ضباباً وراقبت القرميد الأحمر والمظلات ذات اللون الأخضر الباهت، لذلك المنزل الذي كان أشبه بكعكة الزنجبيل. لقد كان ذلك تجسيداً لحلم ظنت أنها نسيته، وهو حلم من سنين بعيدة جداً، وقبل ان تعلمها الحياة كيف تحلم.

كان الصمت، في ما خلا قرقعة محرك السيارة وهو يبرد، مطبقاً داخل السيارة بينما راح الياس يتفحص وجهها وهي تحملق من خلال النافذة الى المنزل، وقد بدت صورتها الجانبية أكثر ارتياحاً وانفتاحاً، كأنها تظهر للمنزل جانباً من ذاتها لم تكن تسمح لعامة البشر برؤيته.

قال بهدوء:«لقد ترعرعت في هذا المكان.»

همست:«عظيم.» وأدهشتها نبرة صوتها بما كانت تحمله في طياتها من عاطفة جياشة.

قال، فيما كان يحدق الى كتلة متشابكة من الشجيرات المحتشدة أمام شرفة المنزل:«لقد كان كذلك في ما مضى.» ثم تنهد وهو يفتح الباب:«هيا بنا نقوم بجولة في المكان.»

راحت مادلين تفكر بأن دخولها هذا المكان بالذات وهي البالغة، كان أشبه بدنوها من شباك التذاكر حين تكون آخر البطاقات قد بيعت. لقد تدبرت أمرك جيدا، لكن بعد فوات الأوان. لو كان عندها منزل كهذا يأويها وهي طفلة لكانت حياتها مختلفة عما هي عليه الآن، ولما كان العالم مدرسة باردة لا ترحم ودروسها قاسية مستعصية.

فيما كانت تمشي خلفه في ارجاء المنزل كانت افكارها تردد بحزن ان الأوان قد فات. وارتسم على وجهها خيال ابتسامة مهذبة ولكن باردة. وكانت يدها تمتد، بين الفينة والفينة، وعن غير قصد منها لتلمس الجدار، لتطال قبضة الباب البورسلين المصنوعة من قبل مولدها بمئات السنين. وخلال هذه الهنيهات من ملامستها تلك راحت تفكر كم كان كل شيء رائعا فيما مضى، وكم كان حزينا ما يبدو عليه اليوم.

كانت معظم غرف الطابق الأرضي من المنزل صغيرة ودافئة ومزدحمة بأثاث قديم، عتيق الطراز. وأعمال تطريز، صنع أمه تملأ المكان وأحست فجأة بعامل الغيرة الشديدة، من طفولته ومن الدفء والحب

اللذين يحوز عليهما كل طفل ينمو في بيت كهذا، حتى ولو كان فاقدا لأبيه. شعرت بلمسة الأم في كل غرفة وكأنها لا تزال على قيد الحياة تقوم على الترحيب بها واستقبالها...

أزاحت عنها فجأة وبحركة متوترة تلك الفكرة الخيالية التي كانت تراودها، وهي مغتاظة كونها تدغدغ فكرة صبيانية كهذه. وتوقفت عن التفكير وهي تحاول اللحاق به في الرواق الذي كان يقسم البيت الى قسمين ابتداء من المدخل الأمامي مرورا بالسلالم وصعودا الى الطابق الثاني وانتهاءً بباب متمايل مصمم على الطراز القديم.

اعلن الياس:«المطبخ.» وتنحى قليلا ليدعها تدخل إلا أنها جمدت مكانها بعد ان تقدمت خطوات قليلة في داخله. سألها وهو يقف خلفها:«هل من خطب ما؟»

هل من خطب؟ ترددت كلماته في ذهنها. كلا بالطبع لا. إلا إذا اردت البكاء من دون سبب وجيه وأن تدفني رأسك بين يديك وتنتحبي حتى يأتي احد ممن يحبونك فيضع يده على كتفك ويهدىء من روعك. وقد يكون هناك شخص من هذا القبيل في مطبخ كهذا، شخص يتأكد من ان الفتيات الصغيرات لا يبكين بمفردهن.

كان الى يسارها بهو تحتشد فيه الخزانات القديمة من خشب السنديان، فيما كان الموقد المصفح بالحديد

يحتل إحدى الزوايا قبالتها وبدا باب الفرن الضخم كفم مقفل على ذكريات الخبز والكعك والحلوى التي كانت تملأ جوفه فيما مضى. كانت هناك طاولة خشبية مستديرة تجمع حولها كراسي متناسقة الألوان، طويلة كالسلالم، حشدت كلها داخل مختلى مظلل. وقد حضنتها نافذة ناتئة. كل زاوية من زوايا المنزل كانت تحمل ذكرياتٍ من تلك السيدة التي جعلت من هذا المكان منزلا، كتلك الآنية الفخارية الموضوعة على حافة النافذة والتي كانت تحوي فيما مضى نباتات ذكية الرائحة عطرة، وكتلك المطرزات التي كانت تتدلى من الجدران والتي كانت إحداها تقرأ:«الطبخ هو الحب.»

«مادلين.» كان صوته ينم عن القلق وهو يردد:«هل من خطب؟»

أدارت رأسها ببطء لتنظر إليه وقد أعادت قناعها الى وجهها فيما كانت تعابيرها باردة:«لا بالطبع لا.»

عندما استدارت، لمحت طبقة من الغبار تغطي كل شيء، الرائحة العفنة توحي بأن المنزل خاو. أدركت ان لا أحد أقام في أرجائه منذ زمن طويل، وإذا كان المطبخ يوحي بشبه حياة فقد كان ذلك مجرد وهم.

قال الياس، كأنه يقرأ افكارها:«لم يسكن احد هذا المنزل لسنوات.» مر قربها ليقف عند المجلى وعيناه

مركزتان على نقطة بعيدة خارج زجاج نافذة المطبخ الذي بهت لونه.

«كنت أخالك تعيش هنا.»

هز رأسه فجأة مما جعل شعره يسترسل الى الوراء:«لا، ليس هنا. سأريك أين.»

لحقت به الى الخارج عبر باب خلفي واستقبلهما ممر من الحجر القرميدي قاد خطواتهما في رحلة لولبية عبر الفناء الخلفي حيث شاهدت بقايا مئات الورود التي ذبلت منذ زمن بعيد.

سألت:«هل ماتت؟» وهي تشعر بالأسى عليها وهي تشرئب من خلال كومة من الاوراق والأعشاب اليابسة.

قال بفظاظة:«لا أدري.» وهي يحث الخطى:«بعضها ذبل، والبعض الآخر لا.»

انعطف الممر بزاوية حادة الى اليمين ماراً بأرض خالية من الأشجار باستثناء مجموعة من اشجار الصنوبر الأبيض ثم انعطف ثانية خلف العشب البري الذي يغطي المروج المترامية الأطراف. وعلى بعد لا يتجاوز العشرين ياردة ظهرت بناية بيضاء الشكل أكبر مساحة من المنزل.

قال وهو يخرج مفتاحا من جيبه ليفتح به الباب الأمامي:«هذا هو مسكني. لقد بنيته منذ سنوات عدة.»

شعرت مادلين بمتانة السجاد تحت قدميها فيما راحت تخطو بضع خطوات في المدى الرحب للمكان وهي تدور متمهلة. كان البناء خالياً من الجدران الداخلية ومن الأثاث والنوافذ. لا شيء من شأنه ان يملي الفكر او يشده الصوت.

شاهدت بيانو ضخماً موضوعاً على منصة عالية في وسط البهو المفتوح. لاحقت نظراتها البيانو بشيء من الإحترام. ارتعشت انامله وقد انتابتها رغبة جامحة في ان تسرع الى البيانو وتبدأ بالعزف، لتأليف الموسيقى في مكان معد لذلك العمل فقط. كان الياس واقفاً وراءها يراقب يديها وهما موضوعتان الى جانبيها وابتسم ابتسامة باردة.

«الاستديو.» همست مادلين، وقد شعرت بأن نبرة صوتها قد تبخرت فجأة.

«وبيتي ايضاً.» قادها الى الجدار البعيد حيث أزاح عنه قطعة من العارضة السميكة التي كانت تغطي الباب. دخلت مادلين الى غرفة طويلة ضيقة تمتد على طول المبنى. كان يوجد فيها مكتب عليه شمعدان وسرير وخزانة وبعض الاشياء الأخرى.

هز رأسه وهو يشير الى باب في الجهة الأخرى قائلاً:«يوجد مطبخ صغير هناك. وحمام، طبعاً. كل ما احتاج إليه.» اما ابتسامته فلم تكن ممتعة وهو يتكلفها.

خرجت من الغرفة الصغيرة وقد ضاقت ذرعاً فجأة بجوها المزعج. قالت:«ألا تستعمل البيت ابداً؟»

اغلق الياس الباب وعلت شفتيه ابتسامة صفراء:«كلا. سيكون المنزل منزلك، ما دمت تعملين معي.» مشى الى حيث كان البيانو، من دون ان يلاحظ كيف تسمّرت مادلين في مكانها وقد فغرت فاها.

راحت تفكر وهي ترتجف، المنزل سيكون منزلها. ليس الى الأبد، ولكن لفترة من الوقت، المنزل سيكون منزلها.

«مادلين؟»

رفّت بعينيها ورحت تنظر إليه، متكئاً على البيانو وعيناه مركزتان على عينيها عبر المسافة التي كانت تفصل بينهما، قال بهدوء ومن دون تحذير:«تعالي واعزفي لي.»

شعرت مادلين بقلبها يخفق بسرعة. اخذت تنظر إليه عبر الغرفة وقد بدا أكثر طولاً وضخامة، وكأن ارتفاع المنصة او شيئاً ما عبر المسافة التي كانت تفصل بينهما قد جعله يبدو كذلك، وشعرت فجأة بالخوف. اقترب منها وقد أيقظ من طفولتها ردات فعل عاطفية، قديمة، ارعبتها حقاً.

مشت نحو المنصة وقد فارقتها الأحاسيس، وعندما جلست على مقعدها الى البيانو، كانت يداها ترتعشان.

سرعان ما توقفت الرجفة عندما لمست أناملها لوحة المفاتيح.

بعد ربع ساعة من الوقت، أرخت يديها عن لوحة المفاتيح وأغمضت عينيها وقد شعرت بتلاشي قواها. همس من ورائها:«شكرا.»

استدارت ببطء على مقعدها وهي تنظر الى عينيه الخضراوين الصافيتين كصفحة مياه ساكنة في إحدى بحيرات الغابات. وارتسم على شفتيه طيف ابتسامة. قال بهدوء:«لقد عزفت هذه المقطوعة كما تصورتها في عقلي عندما كتبتها.»

ادركت مادلين انها عزفت مقدمة المقطوعة بطريقة فريدة من نوعها. قال النقاد انه أخرق وتعوزه الرشاقة، وينجز أعماله بغير تفكير. وبسبب ذلك اخذت شعبيته بالانحدار. لم تتذكر انها قررت ان تعزفها قبل ان تفعل. إلا ان النوتة انسابت من أناملها الى لوحة المفاتيح، وكأن تلك القطعة هي التي قُدر لها ان تعزفها في هذه المناسبة الخاصة.

قال بحماس وهو يقترب منها:«أي شيء تريدين، يا مادلين. سأعطيك أي شيء تريدين، مقابل ان يسمع العالم موسيقاي بالطريقة التي تعزفينها.»

راحت تنظر أمامها وأفكارها تتسارع. فقد امضت حياتها وهي تريد اشياء من الناس إلا انها لم يكن لديها ما تقدمه في المقابل. اخيرا، جاء من يطلب

منها ان تعطيه ما هو ثمين عندها. وللمرة الأولى أتيح لها ان تختبر هذا الاندهاش المرعب في ان تكون مشاركة في السباق البشري بدلا من ان تكون مجرد مشاهدة.

دعني أعيش في هذا المنزل الرائع، دعني اعزف موسيقاك، دعني أكون على مقربة منك وأنت منكب على عملك، دعني أحوز على هذا الى الأبد، كانت تفكر، إلا انها كانت تعلم ان لا تسأل عما هو دائم. فلا شيء في عرفها يدوم.

قالت وهي تتظاهر بالدهشة:«انت وأنا لن نربح أية جائزة ونحن نتناقش هكذا. سأعمل أي شيء لأعزف موسيقاك وستقدر جهودي حق قدرها.»

ضحك ضحكة خفيفة وأزاح يديه عن كتفيها ثم أدارها لتواجهه، قال وهو يحدق في عينيها:«نحن ثنائي ناجح، انت تعلمين... ثنائي لا يهمها شيء إلا الموسيقى، ومن أجل الموسيقى سنضحي بأي شيء. سنكون فريقا ولا أنجح.»

شعرت بوهن ضحكتها:«نعم ينبغي علينا ان نكون كذلك.» راح صوت في ذهنها يؤنبها، ان ذلك لن يدوم، لأنك تريدينه كثيرا، وعندما نرغب بتحقيق اشياء او نحتاج إليها، او نتعلم ان نحبها، فهي سرعان ما تزول.

احست بتوتر حين راحت يداه تنزلقان الى معصميها.

احتضن يديها وهو يحدق فيهما بتعبير من الرهبة. فشعرت انها لم تعد تملكهما، كأنهما صارتا كياناً مستقلاً عنها. انحنى وقبّل يديها، وكادت ان تغيب عن وعيها.

حملقت في رأسه. وبدأت موجة من الدفء تتغلغل في داخلها لتنشر الدفء في جسدها ووجهها في وهج ظاهر. وشعرت إذ ذاك بتسارع تنفسها.

راحت تفكر في انخطاف كلي. هذه هي الموسيقى والشعر ومعنى الحياة، وأنت تشعرين بها لأول مرة. تمالكي نفسك. وهي ربما لن تنتهي ابدا.

وقف فجأة ودفعها برفق لتقف الى جانبه وشعرت مادلين لأول مرة بطول الرجل الذي بجانبها.

قال:«انظري إليّ يا مادلين.»

رفعت عينيها صاغرة، وأمسكت عن التنفس عندما رأت ان عينيه قد أصبحتا قاتمتين، وتحت تأثير تلاعب الضوء تبدوان سوداوين لا اخضرار فيهما وتضجان بالحيوية والدفء.

نادته:«الياس.» وشعرت بأن اسمه صار مألوفاً على شفتيها.

جمدت تعابير وجهه فجأة وهو يحملق بها مصدوماً، وكأنه أحس بأنه ارتكب ذنباً، قال:«انا آسف، لا أدري ما الذي دفعني لأن افعل هكذا. ربما دافيد على صواب. فقد كنت وحيداً لمدة طويلة.»

كانت كلماته أشبه بأصابع باردة سوداء تضيق الخناق حول قلبها. فهل هذا كل شيء؟ لا شعر، لا موسيقى، مجرد انفعال بسيط لرجل قضى كل هذا الوقت بمفرده؟

راح يحدق بها لبرهة. نظرته ثابتة، وتعبيره مبهم، قال اخيرا:«لقد تأخر الوقت. علينا ان نعود الى المدينة.»

جلست مادلين قربه وهي مذهولة. عرض عليها اجراً لائقاً مع الوعد بحقوق الفنان في المستقبل. هزت رأسها من دون ان تنبس بكلمة. فلا شيء كان يهمها، ولا شيء سيؤثر على رحلتها الى روزوود.

WWW.REWITY.COM

الفصل الرابع

شغلت مادلين في الأيام الثلاثة التي تلت، كل لحظة من وقتها بالاعمال المنزلية فوضبت ملابسها القليلة وأعادت إدراج مواعيد جديدة لتلامذتها مع اساتذة بيانو آخرين ونظفت شقتها استعداداً لغياب طويل، أي نشاط لتبقي عقلها منشغلاً عن ذكرى تلك اللحظات في الاستوديو التي دفنتها بأمان. إلا ان ومضات من تلك الذكرى كانت تتصاعد إليها فجأة، لتوقفها عن العمل، فتتوقف مكرهة وتصر على اسنانها وهي تحاول جاهدة ان تنسى ذلك الإحساس الجامح وهي في عناق مع الياس.

مراراً وتكراراً، خصوصا اثناء الليل عندما كانت تتمدد متعبة على سريرها وقد جفاها النوم، تعود فتستعيد تلك اللحظات الثمينة في ذهنها. فقد قبلها الياس، محطماً بذلك دفاعاتها جعلها تحلم بأشياء كانت على علم بأنها لن تصبح ملكها. فجأة تراجع غير آبه للاحساس الذي هز عالمها. فقد كان هذا الأمر بالنسبة إليه مجرد زلة بسيطة، ردة فعل بسيطة لا قيمة لها. وقد كرهته من أجل ذلك، إذ انها كانت تحت تأثير لمسته، في حين كان همه الشاغل هو الذي يلزمها لحزم حقائبها.

كان يتصل بها من عند دافيد في كل يوم، مع كل مخابرة كان صوته يزداد غضبا. استشاط غضبا هذا الصباح وصرخ عبر اسلاك الهاتف:«ما الذي يحتاج الى كل هذا التأخير؟»

اجابت بحدة:«انها حياتي.» وهي تشد بقوة على السماعة. اضافت:«لا بد من بعض الوقت لنغلق الباب على حياتنا، انت تعلم ذلك.» ثم اقفلت السماعة في حركة تحد ليست من شيمها. بعد ساعات، لم تصدق بأنها اقدمت عليها.

جلست متعبة على الأريكة في صالونها ذي اللون الداكن ويداها حول فنجان من القهوة، كان فارغاً منذ وقت طويل، تحاول ان تستجمع قواها لتقف وتجر نفسها الى السرير.

قفزت على عقبيها لدى سماعها رنين الهاتف على المنضدة قريباً.

«مادلين.»

رفعت عيناها عندما سمعت صوته ثم اجابت بهدوء:«نعم.»

«اني اتصل كي أعتذر، يا مادلين. فقد كنت عديم الصبر هذا الصباح. إني آسف.» بعد هنيهة من السكوت المطبق اضاف:«مادلين؟ ألا تزالين على الخط؟»

غمغمت اخيراً ببضع كلمات:«إنني آسفة بشأن ما

حدث هذا الصباح. ما كان يجب ان أقفل الخط.»
«لا تكوني سخيفة. فقد راح دافيد ينعتني بأبخس النعوت إزاء عدم صبري هذا. وهو على حق.»
ابتسمت وقالت بهدوء:«اشكر دافيد عني.» فهي لم تجلس معه أكثر من خمس دقائق وها هو قد أصبح وكيلها المدافع عنها.
«قد تشكرينه بنفسك. فأنا متأكد من أنه سيأتي الى روزوود لزيارتنا من وقت الى آخر، إلا إذا... لم تغيري رأيك بالنسبة للعمل معي؟»
لقد اربكها سؤاله، لم يخطر على بالها قط ان تغير رأيها، إلا ان نبرة صوته العالية جعلتها تدرك أنه كان يتوجب عليها ان تأخذ بعين الاعتبار خياراً كهذا، لأنها كانت تضع نفسها على مشارف خيبة أمل جديدة. أصلحت من جلستها وشدّت على السماعة وقد أصبحت تعابيرها أكثر قساوة. قررت ألا تأخذ الأمور هذا المنحى في الوقت الحاضر. ان كل ما عليها عمله هو ان تبقى غير معنية وبعيدة، عن كل شيء، وقد صارت عندها سنوات من الخبرة في هذا المجال. وقد أبلت البلاء الحسن في ذلك.
هتفت اخيراً:«لا، لم أغير رأيي.»
«كم يلزمك من الوقت حتى تحزمي حقائبك؟»
رمقت الحقائب المتراكمة قرب الباب وقائمة الاشياء التي عليها ان تقوم بها، قالت:«لقد انتهيت.» وقد

أخذ التعب منها مأخذاً، وهي تتوقع ان تبقى ليلة اخرى في سريرها، متسائلة إذا سيجافيها النوم في تلك الليلة ايضا.
اجاب:«سأكون عندك خلال ثلث ساعة.»
أقفل الخط قبل ان تتمكن من تسجيل اعتراضها بأن الساعة تشير الى العاشرة، وان لا لزوم للقيادة ساعتين في الظلام، حين يمكنهما الانتظار حتى الصباح...
أعادت الاتصال به مجدداً، فلم يجب أحدٍ في أقل من ساعة كانا في السيارة متجهين شمالاً.
نامت مادلين طوال الطريق روزوود، واستفاقت بشكل حسن لتتعثر على سلالم المنزل الضيقة، ذاك المنزل الذي يشبه في هندسته كعكة الزنجبيل. كان الياس ممسكاً بها تحت مرفقها بيد باردة متجردة لا إحساس فيها.
لم تلمح اللمعان اللطيف للخشب المصقول حديثاً وهو يعكس نور القمر المتسرب من خلال نافذة غرفة النوم ولم تعر انتباهاً لرائحة الشراشف العطرة، المجففة في الشمس والهواء. ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها وهي تدفن رأسها في ثنايا وسادة الريش، ونامت تلك الليلة وهي تحلم بالورود.
الاصوات التالية التي سمعتها كانت غريبة ومرعبة، نحيب أجش، خفيض او أنين متذبذب ومتواصل في

وتيرته. فأجفلت وفتحت عينيها على مداهما وراحت تحدق في الاشعة المتشابكة في ظلالها الغريبة على السقف، عندما عادت تلك الاصوات اغمضت عينيها وراحت تضحك من نفسها بصمت. فقد كان باستطاعتها ان تنام وسط عويل صفارات الانذار او أصوات الأبواق في ضوضائها التي تصمّ الآذان، ولكن كان يصعب عليها سماع صياح الديك او خوار بقرة بعيدة.

تنبهت الى أنها في الجبل الآن وراحت تتساءل إذا كان قد نامت نوما هنيئا، كهذا من قبل. فلا ضوضاء الشارع تتناهى الى مسامعها ولا تضج في اذنها مشاحنات الجيران عبر جدران شقتها الرقيقة، ولا القناني الزجاجية الموجودة فوق المنضدة تجلجل بصوتها لدى سماعها لنغمات الموسيقى الصادحة من مكان ما... طرحت الدثار جانبا، واستقامت في جلستها وراحت تفرك يديها بنشاط. سرعان ما أزاحت عنها طيف ذكرى الأيام الماضية. استدارت لتنهض ثم تجمدت.

كان الياس واقفاً على عتبة الباب ولم يكمل خطواته. وقد غاب عن باله بأنه ممسك بصينية الفطور التي راحت تهتز بين يديه. وجعلت عيناه تطوفان عليها ثم جمدتا على وجهها في دهشة صامتة.

لبرهة من الزمن، كانا جزءاً من لوحة صامتة،

شخصين مندهشين يحملقان بأعين بعضهما بعضاً، خائفين من النظر بعيداً. تحركت مادلين اولا ورفعت الغطاء الى أعلى.

رمقها بنظره فيما كانت يدها متشبثة بالدثار، ثم انتقل الى عينيها وقال وهو يمشي بهدوء واضعاً الصينية على الطاولة بقرب السرير:«إني آسف.»

جلستٍ مادلين على سريرها وقد أخذت منها الدهشة مأخذاً وأحست بوجهها الدافىء وكأنه اتون من النار وهي تراقب كل حركة كان يقوم بها. قالت من غير تفكير ومن دون ان تتمعن بما تقول:«لقد قلت لي بأنك ستسكن في الاستديو، وان المنزل سيكون لي...»

رفع كتفيه بلا مبالاة وكأنه غير آبه وقال:«هذا الفطور هو للترحيب بك في اليوم الأول.» نفض منديل المائدة الموضوع على الصينية، فهفت رائحة القهوة والبيض لتملأ الغرفة. «استميحك عذراً إذا كنت قد اربكتك. تمتعي بفطورك. سأراك في الطابق السفلي.»

بقيت لمدة طويلة ساكنة على فراشها بعد انصرافه وهي ذاهلة وقد تخدرت اعصابها من تصرفاته. فهي بالطبع لم تتوقع ان يتأثر أي شخص لدى مشاهدتها في السرير، لكن لم تتوقع ايضا هذه اللامبالاة الشديدة من أول رجل يجدها في هذا الوضع. فقد كان ذلك اكثر من مخز بالنسبة إليها، وكأنها قد تحولت الى نكرة في هذا الوجود فهو لم يرها على

الاطلاق. ذلك كان دليلاً كافياً على ان اقترابه منها وتقبيلها لم يكونا بدافع قصدي.

لم يكن من طبيعتها ان تغضب، فقد كان الغضب هو الملاذ الوحيد حين يدرك المرء عدم انتاجية باقي الأحاسيس، والحقيقة ان الدخول في ثورات غضب الآن ليس مناسباً. إنه ضرب من الجنون ان تستشيط غضباً بمجرد ان رجلاً دنا منها وهي على ما كانت عليه. ومع ان الطريقة التي عبّر فيها عن تصرفاته كانت غير مريحة. فكرت مادلين ان نظرة منه افضل من لا مبالاته الباردة تلك، إلا أنه سرعان ما اعترتها حمرة الخجل وهي تفكر بمثل هذا التفكير.

طرحت الدثار جانباً وقامت من سريرها وهي غاضبة من نفسها ومنه، وعكفت على حقائبها التي وصلت بطريقة ما الى غرفتها في الطابق العلوي. وقبل ان تعي ماذا كانت تفعل، كانت كل قطعة من ثيابها مرمية في أرض الغرفة في فوضى ظاهرة. ارتاعت من تصرفها هذا وهو الشاهد الحسي لأحاسيس لم تكن تدرك انها احاسيسها هي.

ارتدت بنطال جينز وقميصاً مبقعاً ببقع شتى كانت تنوي استعماله كخرقة لتمسيح الغبار. تبا لها إذا كانت من الآن وصاعداً ستعتني بلباسها من أجل رجل، لا يدرك وجودها.

قال لها وهو يخفي ابتسامة متهكمة فيما كانت تدخل

المطبخ:«انت متلونة بألف لون ولون اليوم،؟»

اجابت بسخرية:«لا أدري لماذا آبه لشكلي الخارجي، ولكن يبدو ان ذلك لا لزوم له إذا كنت ستدخل متطفلاً الى غرفتي في كل مرة.» رمت بالصينية جانباً وهي تشاهد البيض المسلوق تقفز من الصحن. لم تكن قد تذوقتها.

قال وقد عيل صبره:«قلت لك إني آسف، إذا كنت قد اربكتك. وما الخطب إذ رأيتك هكذا؟ فأنا لن آخذ صورك لأبيعها في الشارع.»

أدارت ظهرها له بحركة متعمدة لتسكب لنفسها فنجاناً من القهوة، في الواقع كانت تريد ان تخفي الارتباك في قسمات وجهها. فهي لم تغضب لدخوله عليها متطفلاً ولكنها غضبت لأنه لم يعرها شأنا، فأي امرأة هي إذا؟

اعاد ترداد اسمها بنبرة منخفضة:«مادلين، لم أقصد أذيتك، فالحقيقة أني استعجلت باستقدامك من المدينة، ولم يكن معي حق في ذلك. وما اتياني بالفطور إلا على سبيل المصالحة ومد جسر السلام معك، وليس ذلك تطفلاً على عزلتك او تدخلاً في حياتك الخاصة.»

فقد كان يحاول الاعتذار، ومن الافضل على المدى الطويل ان لا يعرف انه يعتذر عما لم يرتكب. تناولت فنجان القهوة وجلست قبالته. كان مرتدياً

بنطال جينز وكمًا قميصه مرفوعتين لتظهر عضلات ساعديه. تساءلت، كيف يمكن ان ينمي ساعديه بهذا الشكل وهو يجلس الى البيانو طوال النهار.

قالت:«لا يهم، لقد تجاوزت حدودي، لننسى ذلك.»

اشرق وجهه بابتسامة سريعة لم تدرك مغزاها.

قالت متطلعة الى النافذة حتى لا تلتقي نظراته:«لم أكن اعلم انك تطبخ.»

«أفعل ذلك مكرهاً، كان باستطاعتنا ان نتناول الفطور في الخارج، ولكنني لم أكن ارغب في إضاعة وقتي هذا الصباح. أود ان اذهب الى الاستديو لنبدأ العمل.»

اخذ فنجانها يقعقع في صحنه وقالت:«اليوم؟ لكنني لم أفرغ حقائبي بعد، ولم أرتب غرفتي، وإذا كنت سأسكن في هذا المكان فإنه يحتاج للتنظيف.»

مسحت أحد أناملها الغبار عن الطاولة ورفعته ليتحقق بنفسه.

اومأ برأسه قائلاً:«ان بيكي ستهتم بذلك.»

«بيكي؟»

اومأ برأسه مرة اخرى وقد أنارت ابتسامة دافئة وجهه:«ستحبين بيكي، فهي تعيش في القرية، ولكنها ستأتي كل يوم لتطبخ وتنظف وتقوم بكل ما يحتاج المنزل...» ورفع احد حاجبيه الداكنين في مواجهة تعبيرها المرتبك وأضاف:«بالطبع لم تأت الى هنا كي ترعى شؤون المنزل؟ فليس لديك

الوقت لهذا. لدينا الكثير لإنجازه في وقت قصير.»

راقبته وهو يتكلم بسرعة، لاحظت حركاته السريعة وهو يشرب القهوة، ولاحظت كيف يقوم بكل شيء بسرعة، وكأن الحياة نزهة قصيرة، لا وقت فيها للراحة.

«علينا ان ننجز مقدمة المقطوعة في خلال شهر لتسليمها الى المنتج وإذا اعجبته وحازت على رضاه فعند ذلك يبدأ العمل الحقيقي. يلزمنا كذلك شهر، الى أبعد تقدير، كي ننهي الاسطوانة ونسجلها. وقد يطلب منا، بعد ذلك تأليف بعض الموسيقى الدعائية لتسويق الفيلم وليس هذا إلا أول حبة في العنقود... هل تعتقدين ان باستطاعتك القيام بذلك؟»

هزت رأسها بسرعة وقالت وقد روعتها الفكرة:«انا لست بمحترفة. فأنا مدرّسة بيانو، لقد قلت لك ذلك. لم أحترف وليس لي هوى في ذلك. ولم يكن باستطاعتي القيام بإعلانات دعائية أو...»

«قد خلقت من أجل الاحتراف.» كان يحدق في عينيها، وقد أحست بهذا التقارب معه، مثلما شعرت به لدى عزفها لموسيقاه.

فجأة، قطب جبينه، أشاح عينيه بعيداً عنها وكأنه أدرك انهما تكشفان الكثير. وقال بفظاظة:«إشربي قهوتك ثم نبدأ بعزف الموسيقى.»

www.rewity.com

الفصل الخامس

توقفت مادلين امام باب المطبخ وقد أذهلها التبدل الحاصل في الفناء الداخلي في خلال ثلاثة أيام. فقد أطل الربيع فجأة على القرية، كتلك الممثلة التي دخلت الى المسرح على حين غرة وقد تذكرت موقعها على الخشبة.

عادت شجيرات الليلك الخفيفة لترتدي حللها بعد عري كاد ان يكون كاملاً وقد اصطفت في طول الفناء كالسابلة المحتشدة على جانبي الطريق بانتظار استعراض ما. اما الحور القطني، المرتفع كالأبراج خلفها فقد راح يناطح السماء الصافية بأوراقه الخضراء، في حين راحت اشجار التفاح تنشر من براعمها الأريج العطرٍ وتطلقه في الفضاء. وحتى الورود بدت أكثر تلونا، وكأن اغنية الحياة قد عادت لترتعش فيها بألوان باهتة، ما تكاد العين تدركها.

استغرقت مادلين في تفكيرها، وهي تتأمل مفتونة مشهد مئات الزهور وقد عادت نضارتها إليها بفضل يديها اللتين قامتا على تشذيبها وقلب التربةٍ تحتها. فكم صرفت من السنين وهي ترعى زهورا بيتية في شقتها الصغيرة وهي تحلم بحديقة، كتلك المنبسطة أمامها؟ ولم تستطع إلا ان

تجثو على ركبتيها وتهيل التراب الندىّ على يديها.

«هل تأتين؟» توقف الياس على بعد بضع خطوات منها في الممر أمامها ورمقها بنظرة جانبية. فرفعت عينيها عن تلك الحديقة الحافلة بالجمال ونظرت إليه وقد اصطبغت قسمات وجهها بمسحة زائلة من هذا الجمال المتمثل أمامها.

ومضت الشمس على شعره ومضات ضاربة الى الزرقة وخرقت قميصه الأبيض لتظهر ما خفي من جسمه. ومن دون سابق انذار أحست وكأنها تمتلك الرجل والحديقة معا.

تعثرت افكارها وهي تحاول ان تكون اكثر واقعية. وبقيت عيناها محدقتين به على وسعهما، وافترّت شفتاها قليلاً وكأنها قد بدأت تحس نفسها في خضم تلك الرؤية التي انتابتها عندما شاهدت روزوود. ذلك الوعد الغامض بشيء رائع الذي يجافي المنطق ويلزمها برجل ومكان، سوف تضطر ان تغادرهما في ما بعد.

قال بهدوء فيما افترّت شفتاه قليلا:«انت جميلة بوقفتك هذه.» ثم خيّمت الظلال على قسماَت وجهه فأصبحت قاتمة دكناء. استدار ببطء... باشمئزاز، فكرت مادلين... وبدأ يتابع سيره.

سارت وراءه، في الممر، مارة بخميلات الزهور، وعبرا الحقل وصولا الى مبنى الاستديو. كانت تحس طول الطريق بسعادة عارمة. لم تدرك بسهولة انهما وصلا

الى منتهاهما، لأنها كانت مأخوذة بالطريقة التي كانت فيها عضلات كتفه تتحرك تحت قميصه، فيما كانت خصلات شعره السوداء ترتفع لتحيي النسيم. وأحست بدفء الشمس تحت قميصها بينما راح الهواء يهدهدها بغلاف معطر من الحياة الجديدة. بدا العالم كأنه يبتسم ليومها الأول من حياتها الجديدة، وإذا كان بالإمكان التخمين من اشياء سهلة كالمناخ والمحيط فإن المستقبل لا يحمل في طياته سوى الأمنيات والآمال.

لدى دخولهما الاستديو بدأ كل شيء بالتحول.

لم يكد الباب يغلق خلفهما قليلا حتى شعرت مادلين باختلاف حاد، وكأن البناء كله قد أثر تأثيراً قوياً على الياس كما يؤثر الربيع الطلق على الطبيعة. نظرت في وجهه، لقد تبدلت ملامحه وأيقنت من دون ان تفهم كيف ايقنت، ان ذاك الرجل الذي التقاها في الحديقة الذي وصفها بالجميلة قد تحول لدى اجتيازه عتبة باب الاستديو الى رجل آخر لا يشبهه في قساوته وانكبابه الدائم على عمله.

نظر إليها فجأة وبفظاظة ظاهرة وقد امتزجت خضرة عينيه بنور قاتم جعلها ترتعش. نظر الى البيانو عبر المسافة التي كانت تفصله عنه فيما شعرت مادلين وكأنها مخدرة عندما تمتم:«إني أكاد ان اسمع الموسيقى.» فيما لا تزال حدقتاه مسمرتين الى البيانو،

وفجأة نفض رأسه الى الوراء وراح يحملق فيها. عبست لنظراته الغريبة ، وشحب وجهها عندما ادركت عدائيته وفكرت، ماذا فعلت لأستحق كل ذلك؟

قال بخشونة:«تابعي، انك تضيعين الوقت.»

رفت عيناها بارتباك، وكأن العالم كله قد زال من أمامها. صرخ، فيما كانت لا تزال واقفة في مكانها:«ألم تسمعي؟ لا تقفي هكذا مشدوهة. لدينا عمل نقوم به. إجلسي الى البيانو وابدئي بالتمارين.» استدار على عقبيه ومشى متشامخا عبر الغرفة باتجاه مسكنه. تتبعته بنظراتها، وهي مندهشة من تصرفه هذا الى حد أنها تساءلت ما إذا كان حقيقة قد تكلم معها بهذه اللهجة الفظة أم أنها تتخيل ذلك. وراحت تفرك يديها على طول ذراعيها وقد أحست بقشعريرة باردة. ثم تحولت نحو البيانو.

تعرفت أناملها للحال على المفاتيح وراحت تمزق الهدوء القائم بنوتاتها المهدئة، المألوفة والمتصاعدة من جوف الآلة بتآلف وتناغم كليين. أخذت تعزف وتعزف، وبإيقاع أسرع وأسرع الى ان خبا صدى صوته في ضميرها.

اغمضت عينيها وأطبقت شفتيها وراحت تعزف بانخطاف كلي. حتى صرخت عضلاتها طلباً للراحة. حررت أناملها وأخذت تقوم بحركات سريعة صعوداً وهبوطاً حتى بدأ الدم يتدفق في يديها.

«حسناً. هذا يكفي.»
جمدت يداها فوق لوحة المفاتيح وأحست بحضوره وهو واقف وراءها واستغربت دخوله عليها من دون ان تنتبه لذلك.
قال وهو يناولها نوتة جديدة:«اعزفي هذا.»
اجفلت لدى سماعها لنبرته الآمرة تلك واغبرّت عيناها الرماديتان وصارتا أشبه بغيمتين تتلبد بهما السماء وبدت يداها ساكنتين فوق لوحة المفاتيح.
«تنفسي.»
وثبت في حركة مفاجئة لا إرادية عندما شعرت بيديه تدلكان جانبي عنقها:«قلت لك، تنفسي.»
في لحظة مجنونة قررت ان لا تفعل ذلك في تحد ظاهر لإرادته. إلا انها سرعان ما تنهدت وقد بدت حانقة لأن جسمها قد خان إرادتها بسرعة. امتلأت رئتاها فيما راحت أنامله تغرق في عضلاتها المتشنجة وهو يدلكها.
حاولت ان تزيح يديه عنها قائلة:«لا تفعل ذلك.» إلا انهما لا تلبثان ان تعيدا الكرة.
قال بصوت أجش، ونبرة شبيهة بيديه:«اسكتي. لا تتحركي. اهدئي.» تلاشت العدائية من نبرة صوته. ولربما كانت مجرد أصغاث من حلم مزعج.
شعرت بالضغط يزول عنها، وبأن كتفيها قد بدأتا ترتخيان وراحت يديها تنحدران رويداً رويداً الى لوحة المفاتيح ضاغطة عليها من دون ان تحدث أي صوت.

قال لها وقد أرخى يديه حول عنقها:«هذا أفضل. اعزفي الآن.»
بدأت بالعزف وهي تنظر الى الورقة الماثلة أمامها على البيانو.
عندما وصلت الى نهاية الورقة بانت وراءها أخرى ثم اخرى فأخرى. اما هي فكانت تعزف وحاجباها معقودان وعليها طيف من الخيال الحزين وانشقت شفتاها بتنهيدة صامتة. ثم صارت هي الموسيقى. وتحولت تلك النغمات الحزينة والمثيرة للمشاعر الى أغنية يترنح بها قلبها.
شعرت بلمسة لطيفة على ذقنها تدير رأسها الى اليمين ولم تلبث ان تعرفت الى تلك اليد على انها يده. فقد جلس الياس إبان عزفها على المقعد فيما راحت أنامله تحيط ذقنها وهو يحدق فيها وعيناه تتكلمان بصمت.
«هل هذه أغنية الفيلم؟»
اومأ برأسه قائلاً:«مقدمة الأغنية. لقد بدأت بكتابتها في الليلة التي تعرفنا فيها على بعضنا.»
اطبقت شفتاها وهي متعبة، كي تطرد ذاك الشعور الذي كان يجتاحها، حاملاً معه الدفء وكأنه يعانقها. فقد كان من الاشياء الحميمة ان تعزف موسيقاه وأن تحس بها وتعبر معها الى حدود اليأس الذي كان سبباً في تلك النوتات المطبوعة على الورق. كأنها

تستطيع ان تدخل الى عقله فتقول للعالم اجمع ما رأته هناك. فالإتحاد مع شيء كهذا كان غامرا ... ومرعبا. تملك الياس الشعور نفسه، مزيج من الفرح والرعب معاً. وقد راحت تتبينه في عينيه، وتشعر به في ارتعاشة أنامله الدافئة وهي تنزلق من ذقنها الى عنقها والى النبض الخافق في تجاويف حنجرتها.

لم تكن قد أدركت بعد ان أنامله كانت تنزلق، وسمعت صوتاً يصرخ محذراً ... تراجعي، يا مادلين تراجعي الآن طالما هناك وقت... غير انها كانت ضائعة في خضرة عينيه التي وعدت بالربيع والولادة والأمل.

بدا كل شيء طبيعياً ولا محيد عنه. فقد انتمت الى الياس شيبرد منذ اليوم الأول الذي عزفت فيه موسيقاه، وبدوره، صار جزءاً منها وانصهر في بوتقتها.

بحركة لا شعورية رفعت يدها قليلاً لتغطي يده ولتضغط عليها أكثر وخالت للحظة انه يبتسم لها من خلف عينيه الهادئتين وثغره المطبق، ولكن فجأة، تحولت تعابيره وبدا كأنه يتوعد بالشر. وسحب يده بسرعة عنها وابتعد عن البيانو وراح يحملق بها.

قبل ان تستوعب ما كان يجري أمامها تحوّل الى أوراق الموسيقى الأولى ثم رفعها بين أنامله وقال:«اعزفيها مرة ثانية.»

نظرت عابسة الى أوراق الموسيقى أمامها وقد راحت تغيب عن مرمى نظرها.

قال بلهجة آمرة:«اعزفي.» فيما ارتعش حاجباها قليلاً وكأنها ادركت الكلمة ولم تفقه بعد الجواب المناسب.

صرخ بصوت عالٍ:«اعزفي.»

تحركت يداها بخجل على لوحة المفاتيح وهي تتذكر المطلوب حتى لو لم يقم عقلها بذلك. وصدحت النغمة الأولى بنشاز ظاهر.

صرخ في وجهها:«إجعليها باء مسطحة.» عضت على لسانها وقد أدهشها صراخه وقالت:«هذه باء مسطحة.»

كان يصرخ في وجهها، السافل. وفور استعادتها لصفائها ولصوتها ستقول له انها لن تقبل منه هذا التصرف.

قال بغضب:«هيا، هيا، لقد عزفت اللحن على أحسن وجه في المرة الأولى، ماذا جرى لك؟ وكأنك تلميذة في السنة الأولى. ركزي!»

راحت تركز أكثر. إذ كان التركيز على الموسيقى أفضل من التركيز على عدائيته التي لا سبب وراءها، وأفضل من تذكر ما حصل بينهما او كاد ان يحصل، أم ان كل ذلك كان من نسج خيالها. اخذت يداها تضغطان أكثر على المفاتيح وبسرعة أكثر، غير أنها وبغرابة ظاهرة لم تبال لذلك. في الحقيقة، كان يرضيها ان تعزف بنشاز ظاهر حتى تقوده إلى...

ضربت اخيراً بعنف على لوحة المفاتيح ووثبت فجأة على قدميها وتحولت لتواجهه وقد احمر وجهها

ولمعت عيناها. للمرة الأولى في حياتها احست مادلين بحوافز حقيقية للتحدي، فأرادت ان تصرخ في وجهه وأن تضرب صدره بقبضتها وتصرخ قائلة انها لم تفقه شيئاً وإنها لم تعد تهتم بوعوده التي تثير رغباتها، كما الحياة التي قدمت لها منزلاً وعائلة ثم اختطفتهما منها لاحقاً...

لحسن الحظ انها لم تكن تجيد لعبة التحدي. فهي لم تُلقن قط في ان لها الحق في ان تصرخ وتضرب بقبضتيها وتنتفض ثائرة لدى معاملة الآخرين لها باجحاف، هكذا، فهي عندما تكلمت بدا صوتها غائماً وقالت ببساطة:«لا اعتقد ان باستطاعتنا العمل سوياً. من الافضل ان تبحث عن شخص غيري.»

راحت تنظر في عينيه الزمرديتين اللتين اتسعت حدقتاهما ثم اشاحت عنه وغادرت الاستديو، ولم تكد تصل الى غرفتها حتى ترنحت أمام الباب وهي تمنع ركبتيها من الارتخاء.

يا للهول، لقد كانت غلطة رهيبة، في القدوم الى هنا، وفي الأمل بأن انتماءها إلى موسيقى إنسان ما، قد يجعلها تنصهر فيه ايضاً.

راحت تفكر وهي تبتعد عن الباب بأنها قد تكون أقوى مما تتصور. فهي قادرة على مغادرة المكان بمفردها، وقبل ان يطلب منها ذلك.

الفصل السادس

بحثت مادلين داخل خزانات المطبخ عما تحضر به إبريقاً آخر من القهوة، ثم جلست الى طاولة وراحت تحملق في حديقة الورد، وهي تشعر بزوال خفقة الحياة فيها كتلك العيدان اليابسة السوداء التي كانت تشرئب بأعناقها من الأرض.

تشنجت وهي جالسة على الكرسي، حين رأته قادماً باتجاه المنزل، وقد اخفض رأسه وكأنه مستغرق في أفكاره. كرهت ضعفها في مواجهة جاذبيته وكيف يمشي وأشعة الشمس تلمع على الخصلات الفاتحة من شعره الأسود.

دخل من الباب بهدوء، ونظر إليها ثم جلس على كرسي في مواجهتها وناداها:«مادي.» فقطبت جبينها وهي مرتابة من نبرته الناعمة ومن مناداتها بكنيتها هذه التي أطلقها عليها. فلم ينادها أحد بهذه الكنية قبلاً. وتابع قائلاً:«لا ألومك على ما فعلته، غير أنني لا اريد استخدام عازف آخر. فلا استطيع استخدام عازف آخر... ليس مثلك.»

شعرت بخفقة قلبها اللاشعورية والغادرة في صدرها، وكأنها طائر صغير كان محبوساً هناك.

قال لها:«إني آسف لما حصل هناك. فلا أملك حجة

واحدة للطريقة التي عاملتك بها، انك تستحقين افضل من ذلك...» توقف فجأة وهو يفرك يده على فمه.
«هل انت تعتذر للطريقة التي عانقتني فيها،أم للطريقة التي صرخت فيها بعد ذلك؟» كانت الكلمات تنساب من فمها قبل ان تفقه انها ستتفوه بها، فبدت كلماتها وقحة وجريئة.
جمد في مكانه لدى سؤالها، وعيناه شاخصتان إليها، قال بهدوء:«للإثنين معاً. ليس معي حق بالتصرف في أي من الطريقتين.»
آه، ولكنك فعلت، كانت تفكر. فقد أبحت لك ان تضمني من خلال قلبي على الأقل...
بقي ساكناً من دون حراك، وهو ما يزال يحملق اليها.
قال وهو يبتسم بمرارة:«لقد تورطت مع عازفتي مرة قبل ذلك يا مادلين ثم تزوجتها.»
تساءلت لماذا لم يقل لها دافيد بأن زوجة الياس السابقة كانت هي ايضاً عازفته؟
تابع الياس حديثه بنبرة رتيبة مملة:«لقد أحب كلانا الموسيقى، وقد كنت أحمق بما فيه الكفاية وأنا اظن ان هذا يعني اننا كنا نحب بعضنا بعضاً. ان جعل هذين الأمرين يختلطان قد نتج عنه كارثة بالفعل، ولست مستعداً لأن أرتكب الخطأ عينه مرة جديدة.»
رأت مادلين انعكاساً لذات الألم الذي كانت تراه

من خلال مرآتها لسنوات، لذات الدفاع الهش الذي نصبته ضد أي إغواء بالسماح لأحد بالدخول.
لا غرو في ان يصبح الياس بارداً لدى دخولهما الاستديو للعمل. ويعيش تجربة الألم هذا من جديد.
فجأة راح ينظر بعيداً عنها وكأنه لم يعد يتحمل رؤية وجهها لمدة طويلة باستمرار.
شرعت تذكره بنعومة:«انا لست زوجتك السابقة.»
نظر في عينيها، وارتخت أساريره لما رآه فيهما وقال:«لا، لست كذلك.» وبعد برهة ابتسم وقال:«انت فاتنة يا مادلين، وأنت لا تدرين، أليس كذلك؟»
تذكرت ما قاله لها دافيد في اليوم الذي التقته فيه. فقد قال العبارة ذاتها، أم ان الياس قد ناداها بها اولاً؟ وأحست بوخزة خلف عينيها ورفّت أهدابها بصعوبة.
تابع الياس بنعومة:«لم اطلق زوجتي فقط، بل أظن أني طلقت العالم كله. وبقيت معزولاً لوقت طويل وأظن أني نسيت حينها كيف أهتم وكيف أشعر... ثم سمعتك تعزفين موسيقاي في ذلك اليوم، وسمعتك وأنت تعزفين قلبك عالياً على البيانو، و... كنت كأني سمعت أحاسيسي، وتذكرت ايضاً بأنها موجودة.»
كانت ابتسامته ناعمة حتى ليكاد القلب ينفطر لها.
مد يديه عبر الطاولة وأمسك بيديها وقال:«كأنني

www.rewity.com

مستيقظ من نوم او سبات طويل. لقد أعدتني الى الحياة مجدداً، يا مادي. بكل بساطة.»

جلست مادلين ساكنة لا تبدي حراكاً، وما تكاد تتنفس وقد راحت أناملها ترتعش على راحتيه.

«شيء ما يحدث عندما تعزفين الحاني، يا مادي. فهناك رابط روحي قوي يجعل من الموسيقى تحيا من جديد ايضا. إنه لشيء نادر، وثمين...» وتقوس حاجباه مثل جناحين أسودين يظللان عينيه وقال:«لن أسمح لهذا الأمر ان يهدم.»

رفت عينيها بارتباك، فألقت أهدابها القاتمة بظلال فوق وجهها الشاحب.

«لا تدوم العلاقات طويلاً، يا مادلين.»

اومأت برأسها ببطء. فلا أحد يعلم هذا الأمر، أحسن منها.

«إلا ان موسيقانا ستدوم الى الأبد. فتلك الموسيقى التي نحن بصدد تأليفها، قد تدوم إذا لم ندمرها باستسلامنا لأشياء قد لا تدوم مثلها.»

شعرت مادلين بأن الزمن يتوقف للحظة، وفي تلك الاستراحة السريعة انتقل شيء ما قاتم ليحتل المسافة القائمة بينهما. وأحست بأن اساريرها تتجهم، تتجمد في أي تعبير يصدف ان تغلف به وجهها.

«مادي.» شد على أناملها وهو يناديها ثم اتكأ الى الطاولة باتجاهها، وهو يسيطر على انتباهها

وقال:«أعطني فرصة اخرى.» كانت كلماته تنساب بنعومة حتى انها ما كادت تسمعها.

نظرت الى حيث كانت يداها مغلولتين كطائرين بلا حياة، ثم نظرت إليه مجدداً وقد ارتسمت حول فمها ابتسامة واهنة وحزينة وقالت بنبرة تعوزها الفخامة:«من أجل الموسيقى.»

«نعم، الموسيقى. فلا شيء أهم منها.»

كانت الساعة الصغيرة على الحائط تملأ السكون القائم في المطبخ بدقاتها فيما اغمضت مادلين عينيها وأخذت نفساً عميقاً وقالت بلطف:«الموسيقى مهمة لي ايضاً.»

هز برأسه أملاً وهو يقول:«هل هذا يعني انك باقية؟»

نظرت مادلين الى يديها، وهي تتنهد باستسلام وتتساءل ما إذا كانت تستطيع فعل ذلك... إذا كانت فعلاً، تستطيع قضاء أيامها وهي تراقبه، تستمع الى موسيقاه، تشعر بوجوده، تقترب من عقله لتلامسه عبر مفاتيح البيانو تلك، إنها لا تهتم اكثر من اهتمامه هو. ألن يكون أسهل ان تغادر الآن؟ بالطبع، أجل. وسوف يكون ذلك مكاناً آخر يضاف الى سلسلة اخرى من الأمكنة التي تركتها وراءها، فلذة من قلبها. قالت بهدوء:«يجب أن تكون الاشياء مختلفة، لن تصرخ في وجهي. اريدك ان تعاملني مثل صديق.»

ارتخت كتفاه فيما أخرج تنهيدة طويلة. ونظر إليها لبرهة. ثم ببطء، وبحركة احتفالية مدّ يده عبر الطاولة وقال:«حسناً يا مادلين. اعدك بذلك.»

ترددت مادلين، ومع أنها علمت أنها كانت تعرّض نفسها لمزيد من العذاب، صافحت يده الممدودة، وهي تمهر بذلك الاتفاقِ الجديد الذي قام بينهما.

وقف ببطء وقد بدا حزيناً على الرغم من انه حصل على مبتغاه، وقال:«لماذا لا تأخذين بقية النهار لتوضبي مكان اقامتك فيما أقوم ببعض العمل في الاستديو؟ يوجد بيانو في الردهة الأمامية إذا كنت ترغبين في العزف عليه.» امسك بمقبض الباب ثم استدار ونظر إليها:«لن تأسفي لذلك، يا مادلين، أعدك بهذا.»

راقبته بصمت وهو يغادر، ثم تحولت الى النافذة لتتبعه بنظراتها فيما هو يعبر حديقة الورد ويختفي وراء الشجر، وهمست:«بلى، سوف أفعل.»

لم تدرِ كم مضى عليها وهي جالسة هناك، تحملق الى خَارج النافذة، حين سمعت صوت سيارة على الطريق الأمامية مما جعلها تقف.

مشت عبر المنزل الى الباب الأمامي ففتحته ونظرت الى قاطرة قديمة وقد تشقق زجاجها الأمامي على الجهة اليمنى.

خرجت من خلف مقود السيارة، امرأة نحيلة، صغيرة الحجم، وكأنها قد سكبت داخل بنطال.

شعرها الكستنائي ينسكب فوق كتفيها في تموجات لماعة كثيفة.

حين رأت مادلين عينيها الداكنتين، اضاءت وجهها المستديرِ ابتسامة.

«مرحبا.» لوحت بذراعها السمراء ثم انحنت لتسحب أكياس البقالة من داخل السيارة.

تقدمت مادلين نحوها للمساعدة وقد ادركت بأنها المرأة التي اخبرها الياس عنها وقد ادهشها جمالها الأخاذ غير الطبيعي وقالت:«مرحبا. انا مادلين شمبرز.»

ناولتها المرأة كيساً من البقالةِ بابتسامة شاكرة وقالت:«لا يمكن ان تكوني احداً آخر، لا كما وصفك الياس لي. ألم يخبرك عني؟»

«بلى، انت بيكي، أليس كذلك؟»

«بالضبط، فأنا ربة المنزل، والمتسوقة للبيت والطاهية... وكل ما تحتاجان إليه.» هزت كتفيها بمرح وقالت:«بالمناسبة، أين إيلي؟»

ردت مادلين بابتسامة وقد اعجبتها هذه الكنية:«إنه في الاستديو.»

امسكت بيكي بالكيس الأخير وأغلقت باب السيارة ومشت متقدمة مادلين نحو البيت وقالت:«لن نفعل شيئاً لإزعاجه إذاً، يا للهول، انظري الى هذا المكان.» توقفت وهزت برأسها وهي تقول:«يبدو اسوأ في

وضح النهار، حتى لنكاد نشتم رائحة الغبار.»
«في وضح النهار؟» راحت مادلين تمشي وراءها في الرواق مروراً بالسلالم حتى المطبخ. ومضت بيكي بابتسامة مألوفة من وراء كتفها. «لقد نظفت غرفتك بعد حلول الظلام مما بعثر حبيبات الغبار العالقة هنا وهناك.»
«لم يجب ان تفعلي هذا...»
«بلى، فعلت. لقد اتصل الياس وأتيت مسرعة. هكذا تجري الأمور. ضعي الكيس على الرف إذا سمحت. ألم يسنح لك الوقت لكي ترتبي أمورك هنا؟»
اجابت مادلين وهي لاهية عنها:«كلا، فأنا لم أفرغ حقائبي بعد.» وعضت على شفتها بحيرة ودهشة وهي تتذكر الملابس المنتشرة في غرفتها. «في الحقيقة لقد بدأت بتفريغ حقائبي، نوعاً ما.»
«نوعاً ما؟»
هزت بكتفها وهي مرتبكة قليلاً. «لقد رميت بكل شيء احضرته معي في كل مكان من الغرفة. فقد كنت في ثورة غضب.»
نظرت مادلين إليها فيما كانت تقوم بتفريغ محتويات الأكياس وهي تتعجب كيف ان امرأة بهذا الجمال لا تعمل عارضة ازياء بدلاً من مدبرة منزل. سألتها:«هل هناك الكثير من المنازل التي تهتمين بها؟»
ضحكت بيكي فيما هي تخرج مشبكاً من جيبها

وتعقص شعرها الى قمة رأسها:«هذه فعلة الياس، لا شك. هو يفعل ذلك. يخرج الناس عن طورها حتى ليرموا بأشيائهم في كل مكان هنا وهناك.» ونظرت الى مادلين في محاولة الحصول على موافقتها.
ضحكت بيكي وهي تمد يديها في كيس آخر:«لا أفعل ذلك لأكسب عيشي، بل فقط من أجل الياس. انا معلمة مدرسة وهذه عطلتي الصيفية.»
تراجعت مادلين في افكارها، لكن بيكي استمرت بالثرثرة:«انا سعيدة لأنه سوف يبقى هنا لبعض الوقت هذه المرة. فهو عادة يبقى لأيام قليلة ثم يغادر الى مكان آخر... أي مكان آخر.» توقفت لبرهة ونظرت الى مادلين ثم تابعت:«لقد حاولت لسنوات ان أكلمه بشأن السكن هنا بشكل دائم. ربما بمساعدتك استطيع اقناعه.»
شحبت مادلين وتراجعت هذه المرة خطوة فعلية الى الوراء، وبدأ كل شيء يظهر واضحاً أمامها. بيكي لا تنظف المنازل من أجل كسب العيش، هي تقوم بذلك من اجل الياس فقط، بيكي تنظف غرفة النوم بعد حلول الظلام... ماذا قالت هي؟ (الياس يتصل، وأنا احضر بسرعة؟)... وهي الآن تتوسل مساعدة مادلين لإقناعه بالبقاء معها بشكل دائم...
«هل من خطب؟» كانت بيكي مقطبة الجبين رداً على تعابير وجه مادلين.

قالت:«لا. لا شيء على الاطلاق.» اجبرت نفسها على الابتسام وأضافت:«سوف ابتعد عن طريقك الآن.» كانت الكلمات تعني اكثر من عزمها على مغادرة المطبخ، ولكن بيكي لم تدرك ذلك بأي شكل من الاشكال.

قالت بيكي:«سوف أعد الغداء في وقت قصير.» تقدمت من الثلاجة وفتحت بابها، وابتعدت بسرعة وقد تجعد أنفها باشمئزاز:«أوف، يوجد شيء عفن هناك.» نظرت الى اعلى ووجهها مشرق ثم قالت:«من الآن فصاعداً سوف أكون هنا بشكل يومي، بالمناسبة، إذا احتجت لشيء ما دعيني اعلم بذلك.»

ابتسمت مادلين ببرود وهزت رأسها، ثم اعتذرت وغادرت المطبخ، وهي تتوق الى ايجاد بيانو والعزف عليه. لم يرها الياس الصالون في جولتها الأولى في المنزل، بل اختار ان يفتح الأبواب الخشبية لجهة غرفة الجلوس عندما مرا بها. شقت الابواب الآن بجهد كبير، ثم نظرت الى ما بدت أنها اكبر غرفة في الطابق الأرضي.

كانت قطع قليلة من الأثاث المريح منتشرة في تلك الغرفة، وموقد نار من القرميد، وحائط مغطى بعشرات الصور المؤطرة التي قررت مادلين ان تتفحصها في وقت لاحق. أما الآن، فقد كانت تتوق الى رفع الغطاء الملقى فوق البيانو الصغير قرب النافذة.

أدهشها ان تجد ان البيانو الأسود القديم بحاجة الى تلميع، وقد ظهرت عليه بعض الشقوق التي ابرزت الخشب العاري. وكانت المفاتيح العاجية صفراء. لم يكن من نوع الآلة الموسيقية التي يتوقع ان يحتفظ بها الياس شيبرد في بيته.

ولكن ذكرت نفسها، ان هذا المنزل ليس بيته، لقد رفض حتى النوم هنا. بالإضافة الى ذلك، فإن نظرة سريعة الى الآلة تثبت انها تلقى عناية حسنة على الأقل من الداخل. ويصدر عنها صوت رنان رائع.

جلست من دون ان تفكر ثانية وتركت البداية الحزينة لمقطوعة بيتهوفن سوناتا ضوء القمر تمحو العالم من وجدانها. وفي اللحظات الأولى دفعت بكل أفكارها الى زوايا عقلها، ثم تاهت في الموسيقى.

البيانو كان دائماً مهربها الوحيد، ملجأها من حقيقة قاسية لا تستطيع مواجهتها، حريتها من مشاعر حادة لا تستطيع كتمها في داخلها.

في كل مرة كانت انامله تلامس لوحة المفاتيح كان البيانو يحاكيها وهو يحتفل بانتصاراتها وأفراحها، ويندب أتراحها، ويرثي يأسها. فقد كانت خجولة في طفولتها، وكان التعبير عن مشاعرها من خلال البيانو أهون من مقاسمتها مع أناس لم تعرفهم لمدة طويلة.

توقفت عن العزف، وتركت النغمات الحزينة متعلقة

في الهواء كصدى لحالتها. بيكي واقفة في الرواق، ساكنة،لا تتحرك فيما كانت تتدلى من يدها ممسحة من الريش، وقالت بهدوء:«لقد نسيت ما معنى الموسيقى في هذا المنزل. فقد مضى على ذلك وقت طويل.»

مزق الصمت القائم صوت أشبه بدوي الرعد وهو يصرخ:«ربيكا.»

استدارت بيكي بسرعة وهي تقول:«انا هنا.» وقد اشرق وجهها إشراقة مضيئة.

في ثوان قليلة كان الياس واقفاً في الرواق وهو يرفع بيكي بين ذراعيه بابتسامة لم ترها مادلين على وجهه قبلا. وأمسك بوجهها بين يديه وراح يقبلها على وجنتيها. ثم وقفا وهما يبتسمان لبعضهما بعضا وهو غافل عن مادلين وكأنها قطعة من أثاث.

بلعت ريقها بصعوبة وقد ظنت ان ما قاله في تجنبه التورط العاطفي ينطبق فقط على العازفات وليس على القائمات على خدمة المنزل او اساتذة الموسيقى.

أدار الياس رأسه فجأة ووقع نظره عليها فصاح:«لم أدرك انك هنا. اعتقد انكما قد تعرفتما على بعضكما بعضاً، لماذا لا نجلس ونأخذ القهوة؟»

حاولت مادلين ان تبتسم لكنها اخفقت في ذلك ولم تلبث ان قالت:«في الحقيقة كنت على أهبة ان اصعد الى فوق. إلا اني اردت ان اجرب البيانو اولا.»

حاول الياس ان يتقدم نحوها قائلاً:«جربيه إذاً.» إلا انها نهضت قبل ان يهم باتخاذ خطواته التالية.

«لقد فعلت ذلك. إنه لعظيم، إلا أنني تعبة الآن. أراكما فيما بعد.»

مشت بهدوء ولم يكد أسفل السلم يخفيها عنهما حتى أسرعت في خطاها. ناداها الياس فيما كانت قد اوصدت الباب خلفها ولم ترد على ندائه. وارتخت مفاصلها وهي متكئة الى الباب وأمسكت عن التنفس علها تسمع صوته مجدداً وهو يناديها، إلا انه لم يفعل.

كانت المنضدة تواجهها عبر الغرفة ولم يكن أمامها من مفر، إذ عليها ان تركز على صورتها المنعكسة في المرآة. الصورة التي رأتها بدت لا شكل لها تحت ذلك القميص المجعد. صغيرة، ومثيرة للشفقة بشكل غريب.

تنهدت بعمق وهي تبتعد عن الباب، عبرت الغرفة واقتربت من المرآة حتى لكاد نفسها ان يجعل زجاجها ضبابياً.

همست بحزن:«انت غير مرئية. فهو يستطيع سماعك تعزفين، إلا انه لا يستطيع رؤيتك، لأنك غير مرئية.»

الفصل السابع

كانت شمس الأصيل تنير الغرفة بأشعتها الوردية عندما استيقظت مادلين، فجلست في سريرها وتفحصت ساعتها.

لقد نامت اربع ساعات ولم يحرك احد ساكناً لإيقاظها. ولماذا يفعلان ذلك؟ فكرت بأسى فيما راح ذهنها يستعيد صورة الياس وبيكي وهما يتعانقان. شعرت فجأة بالحنين الى شقتها، الى اثاثها، حيث كانت تجد راحتها وأمانها. لدى مشاهدتها روزوود للمرة الأولى اعتقدت انها ستكون مكاناً مماثلاً. المنزل، الموقع، إضافة الى حديقة الورود التي قتلها الشتاء بدت تناديها كأنها اصدقاء قدامى، ولكن كم بدا ذلك سخيفاً وهي تستعيد الاحداث الماضية وتتأمل ان لا مكان لها هنا.

استغرقت أطول وقت ممكن في أخذ حمامها ثم بتجفيف شعرها، وارتدائها لملابسها وإعادة ترتيب غرفتها... في محاولة منها لتأجيل رحلتها المحتومة في النزول الى الطابق الأرضي ولقائها المحتوم مع الياس وبيكي الذي سيذكرها بأنها أصبحت دخيلة كما كانت في كل مكان عاشت فيه.

مثل طفل في دثار الأمان، وجدت بعض الراحة في

قطعة من الثياب كانت تحبها حباً جماً، الفستان القطني الأبيض الذي أصبح رقيقاً لتعرضه للغسيل المتواصل ولكنه كان ينساب عليها بتموجات ناعمة من العنق حتى اخمص القدمين. وكانت عند ارتدائه، وبكميه الطويلين المتدلين عند المعصم، تضفي عليها التواضع الانثوي. وسرعان ما تساءلت إذا كان ارتداء زي كهذا هو محاولة لا شعورية في مناقضة زي بيكي الهزيل والبعيد عن كل بهرجة.

بيكي. ان ذكرى أنوثة بيكي المفعمة بالحياة والنشاط كانت وكأنها تسخر من انعكاس صورتها في المرآة وهي بالأبيض من قمة الرأس الى اخمص القدمين، مع خصل الشعر المنسدلة حول كتفيها. وامتدت يدها لتتناول ادوات المكياج. لاعطاء الحياة لشفافية وجهها الشاحب، غير ان سخافة تقليد جمال بيكي قد أدهشها، فتركت علبة المكياج في مكانها. وفيما نفدت كل الحيل لإبقائها بعيدة عنهما، غادرت غرفتها وبدأت بنزول السلالم.

كان الياس ينتظر في الطابق الأرضي من المنزل. ارتبكت لدى رؤيته، ابطأت بخطواتها ثم توقفت وهي تنظر إليه فيما راح ينظر الى أعلى، ويده ممسكة بالدرابزون، ووجهه جامد في تعبير غريب. كان شعره أسود لماعاً، وقد بدا أنه اخذ حماماً وصفف شعره الى الوراء كيفما اتفق.

تسمّرت عيناه عليها، وهي صامتة تنظر في خضرة عينيه التي كانت تبدو عميقة وكأن كل خضرة الربيع تنعكس فيها. لاحظت انه يرتدي الأسود وقد ساهم ذلك في إعطاء وهج لعينيه ولجذب نظرها الى اللونين الأسود والأخضر وإبقائه اسيراً هناك.

من دون ان ينبس بكلمة رفع يده عن الدرابزون ومدها إليها ومن دون ان تعي ما هو بصدده، أمسكت بها.

شعرت بوخزة خفيفة في أصابعها وهي تنزلق الى داخل راحته وخطت خطوة باتجاهه فيما لا تزال عيناها محدقتين في عينيه ثم راحت تخطو خطوة أخرى. وتوقفت على بعد درجة من درجات السلم وقد أصبح وجهها بمساواة وجهه، إذ لم يعد باستطاعتها ان تتقدم أكثر.

قال بهمسة خفيفة:«تعالي، يا مادي.» وأحاطت يداه بخصرها ورفعها نحوه من دون جهد. وتدلت قدماها في الهواء وخالت قلبها يسبح فوق جسمها. ثم انزلها رويداً. فقد كان قريباً جداً منها، وعندما شعرت مادلين بضغط أنامله حول خصرها، أفلت يديه وتراجع بسرعة بعيداً عنها.

نظر الى الأرض في الوقت نفسه، ثم أخذا يتطلعان ببعضهما بعضاً بتردد.

قال بهدوء:«لا بد انك جائعة، فقد نمت حتى الظهر.»

اومأت مادلين برأسها بحركة قوية وعيناها متسعتان. مع بعض خدع الذاكرة، خيّل لها ان يديه لا تزالان تحوطان بخصرها.

«هيا بنا.» استدار وهو يمشي أمامها في الرواق باتجاه المطبخ ولحقت به وهي غافلة عما يدور حولها وعيناها شاخصتان إليه.

قال وهو يستدير نصف استدارة:«لقد حضرت بيكي لنا العشاء قبل ان تذهب. لم اعتقد انك قد ترغبين في الخروج هذه الليلة.»

دلكت خصرها بحركة لا شعورية فيما هي تلحق به لتمحو ذكرى لمسته:«هل ذهبت بيكي؟»

«منذ ساعات.»

كانت ظلال العصر تملأ غرفة المطبخ، والهواء قد أذعن لكآبة الغسق. وكان المصباح مضاءً إلا ان الظلام لم يكن قد حل بعد ليشع أكثر. توقفت مادلين في الرواق وارتجفت وشعرت بانزعاج غامض.

كانت لمسة بيكي في كل مكان من المنزل. النافذة فوق المغسلة تلمع، الآنية الفخارية الفارغة قد أزيلت عن المغسلة الى مكان آخر غير مرئي. كانت مساحة لماعة من الأرض تمتد حتى الموقد المنظف حديثاً، في آخر الجدار، وكانت الكراسي التي تحيط به أكثر لمعاناً. وإلى الأمام قليلاً، امتدت الطاولة القائمة تحت النافذة المطلة على حديقة الورد، وهي معدة

لشخصين، فيما كانت صفحتها تلمع من بين الحصر الصفراء الممدودة عليها.
بقيت واقفة مكانها فيما كان الياس يحرك شيئاً يستوي على النار ذا نكهة خاصة.
قال لها:«كنت أحتسي العصير. هلاّ صببت لكِ بعضاً منه؟»
نظرت الى إبريق من البلور والى اكواب متناسقة مع الابريق، كانت مصفوفة على الطاولة، بدت ثمينة وفي غير موقعها بين الآنيتين الفخارتين الجبليتين الموضوعتين هناك. ابتسمت وهي تسكب العصير وتفكر بالاضداد التي التقتها في هذا الوقت القصير الذي أمضته في روزوود. أعمال التطريز المشغولة بكل تدقيق وإمعان تملأ هذا المنزل الخالي من الحب، الياس الممزق بين حنانه ودفئه وانقلابه المفاجىء الى البرودة، الحديقة التي عمها الذبول وسط ربيع موفور، والآن تلك الآنية من البلور في مطبخ على الطراز الجبلي.
انضم الياس إليها الى الطاولة وقال بانحناءة بسيطة:«طبقا لما قالته بيكي، علينا ان نشرب هذا العصير قبل ان نفكر بالأكل.»
رشفت مادلين من العصير وغرقت في إحد الكراسي ذات الظهور المتمادية في الطول. وانزعجت لبقائه واقفاً وهو ينظر إليها وقالت:«هل

حقاً ان كل ما تفعله سيء الى هذه الدرجة؟»
قهقه قائلاً:«لا، فبيكي طاهية رائعة.»
راحت مادلين تحاكي نفسها وتساءلت إذا كان هناك شيء لا تستطيع بيكي ان تقوم به. إنها ربة منزل، طاهية، ربما عالمة ذرة في أوقات فراغها. «اعتقد انك تحبين هذا العصير؟»
هزت مادلين كتفيها ورمقت كوبها وقد أدهشها وجوده فارغاً وقالت:«اعتقد أنه يحتم علي ذلك.»
هز الياس برأسه وهو يبتسم ثم تراجع باتجاه الموقد وهو يقول:«اعتقد ان بيكي قد حسبت حسابك. اسكبي لنفسك المزيد.»
تساءلت مادلين إذ لم تكن ابتسامتها متكلفة من الخارج كما كانت عليه من الداخل. وأوقفت يدها حين وصلت نحو الإبريق.
كان العشاء مزعجاً بصمته. انهت مادلين عشاءها بالنظر الى الظلمة وهي تزحف الى حديقة الورد خارج النافذة محاولة ان تتجنب نظراته قدر المستطاع.
استهل فجأة حديثه قائلاً وقد جعلها ترتجف:«كان من المفترض ان نتعرف الى بعضنا بعضاً هذه الليلة.»
«ماذا؟»
وضع شوكته بتأن ورفق مبالغ فيهما في صحنه وأخذ ينظر إليهما لفترة طويلة وكأنه كان يتوقع

انها تعرف ذلك. ثم قال:«من أجلٍ ذلك خلق الشراب. ظنت بيكي أنه سيكون جميلا ان نسترخي وأن نمضي أمسية اجتماعية رائعة.»

تقوس احد حاجبيها وقالت:«حقا؟»

هز رأسه بكآبة وقال:«لن تكون هذه الأمسية ممتعة مثل الأمسيات الاجتماعية، أليس كذلك؟ لقد كانت بيكي على حق. كان علينا ان ننهي العشاء.»

كان الظلام شاملا عندما انتهى من غسل الصحون وتجفيفها. فقد كان تنظيف الطاولة عملاً أخرق الى حد ما وكأنهما أشبه بغريبين يحاولان وضع بعض الترتيب في المنزل.

سمعت مادلين الياس وهو يتنهد تنهيدة عميقة فيما كانت تضع منشفتها المبللة على المشجب قرب الموقد كي تجف. واستدارت لتراه وقد أدار ظهره لها فيما كانت يداه متكئتين فوق المغسلة.

لم يكن من العدل ان يسلط النور عليه في تلك الطريقة، فكرت مادلين بأسى، لأنه كان يشع عليه فيلمع شعره مثل هامة فوق رأسه، يظهر قميصه الحريرية المتشبثة فوق عضلات جسمه التي كانت تهتز عند كل زفرة.

قال وهو يتحول نحوها وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة:«نحن لسنا صديقين مثاليين، أليس كذلك؟ وإذا كانت هذه الليلة شاهداً على ذلك،

فأنت تبدين مبتدئة في الحياة الاجتماعية مثلي.»

ابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت:«إني آسفة، فأنا لست مولعة بالحديث او بارعة فيه.»

«لا تعتذري، فأنا مثلك.»

تنهدا في آن واحد، ثم فيما اخذت شفاههما تعكس ابتسامتهما المتوترة. استدار الياس محولاً وجهه عنها وهو يدّعي شدّ إحدى الحنفيات التي لم تكن بحاجة الى شد. ثم قال:«لقد اتصل دافيد بعد الظهر.»

قالت متعجبة وهي تملس احد كمي قميصها:«صحيح؟»

«لقد أراد ان يأتي ليأخذك الى العشاء نهار الجمعة.»

ان فكرة مشاهدة دافيد، وان يكون لديها رفيق، تماماً كما الياس لديه بيكي، اصبحت فجأة تروق لها. لن يكون هناك صمت مزعج في أمسية برفقته. الصمت هو ألد اعداء الاشخاص مثل دافيد، إنه شيء قاتم ومخيف يجب ان يبقى بعيداً بأي ثمن. قالت:«اعتقد أنني ارحب بذلك. أي وقت سيكون هنا؟»

استدار فجأة ليواجهها غير ان شيئاً غريباً ظهر في تعابير وجهه، وقال:«لن يأتي. لقد قلت له بأن لا يفعل.»

ارتبكت مادلين للحظة ثم قالت:«لماذا فعلت ذلك؟»

قال وقد بدأ وجهه يتجهم:«لأنني... لا أريد أي شيء ان يعيق عملنا.»

قالت غاضبة:«عليّ ان ابدأ بالأكل على أي حال.»
هز رأسه باستياء وقال بفظاظة ظاهرة:«ان دافيد من النوع الذي يلهي الواحد عن عمله. وأظن ان آخر ما تحتاجين إليه هو الهاؤك عن عملك.»
بقيت ساكنة برهة من الوقت وهي تحاول ان تصيغ كل ما يحصل أمامها من أمور لا تصدق، في كلمات. اخيراً اجبرت نفسها على القول:«انت قررت؟»
ضاقت عيناه في محاولة دفاعية، رافضا ان ينظر إليها وقال:«بالضبط. فأنا أعلم ما هو الأفضل في هذا الوضع.»
راحت مادلين تنظر الى يديها وهما تتحولان الى قبضتين بيضاوين قبل ان تدرك كم كانت غاضبة. فقد بدا كأحد الآباء المغرورين وهو يحاول ان يدق ناقوس الخطر ضد أحد أبنائه. وقالت بتأن وهدوء:«ليس لديك حق في أن تتخذ قرارات مثل هذه.» لم تستطع من خلال صوتها الواثق ان تمنع نفسها عن التفكير بأن كان لديه الحق في وجود بيكي بشكل يومي بينما هي لا يحق لها ان تسهر ليلة واحدة بعيداً عن سيطرته.
عندما نظرت إليه اخيراً كانت عيناها قد اصبحتا قاتمتين بلون رمادي وثائرتين.
قالت بنبرات حادة ومتقطعة:«إني أعمل عندك، غير انك لا تمتلكني، وإذا كنت اريد ان أذهب او اخرج

الى العشاء مع شخص آخر فهذا ما سأفعله بالضبط. سأتصل بدافيد غداً، وسأخرج معه مساء الجمعة.»
دارت حول نفسها ومشت وهي ترفع رأسها، خارج المطبخ الى الردهة. كادت ان تصل الى السلالم حين أحست بيده تمسك بها.
لم يقل شيئاً البتة، بل أمسك ذراعها من خلف وأدارها حول نفسها بقوة حتى كادت ان تفقد توازنها. وعندما اصبحت في مواجهته كانت عيناها مأخوذتين به خلف غطاء من الشعر الأشقر الذي غطى وجهها، ولم يبد أنه يعلم فعلاً ما عليه ان يفعل.
تغضن حاجباه بارتباك ظاهر وأنزل ذراعها بسرعة وقال بصوت أجش:«قد نستطيع ان نذهب سوية ليلة الجمعة. لا لزوم للاتصال بدافيد ليأتي كل هذه المسافة.»
«لقد كان دافيد يرغب في القدوم وأنا أحب ان أراه.»
نظر في عينيها وبحركة أدهشتها رفع يده ليزيح خصلة شعر بعيداً عن وجهها كي يستطيع رؤيتها بوضوح أكثر.
اغمضت عينيها بحركة لا شعورية لدى ملامسته له ثم راحت تفتحهما رويداً رويداً. وقال بهدوء:«حسناً، فهمت. فالأمر يختلف الآن، أليس كذلك؟» تراجع خطوة الى الوراء ورفع يديه وقال:«كنت ذاهبة الى مكان ما، أليس كذلك؟»

فتحت مادلين فمها باندهاش، ثم ترددت وهي تحملق في عينيه السوداوين تحت ضوء الرواق الشاحب. وهز رأسه وكأنه يحاول ان يقرأ تعابيرها في الظلام ثم تحول بعيداً ومشى نحو المطبخ.

تبعته بنظراتها وهي تراه يلتفت الى الوراء نصف استدارة قبل ان يغيب عن نظرها.

قال من دون غضب في نبرته:«سأعمل لوحدي غداً صباحا. كوني في الاستديو بعد الغداء.» ثم سمعت باب المطبخ يفتح ثم يغلق برفق وراءه.

الفصل الثامن

الربيع. كانت شفتاها تتمتمان بصمت تلك الكلمة وهي تفتح نافذة غرفتها وتتنفس بعمق من نسيم الصباح الدافىء العطر. وقد أضحى ذلك عادة من عاداتها في أقل من أسبوع، فهي تفتح نافذتها وتأخذ نفساً عميقاً وهي تحاول ان تتعرف الى تلك الروائح الذكية الجديدة التي كانت تأتي مع كل فجر. هذا الصباح كانت رائحة الأرض الذكية الغنية تتصاعد إليها من الحديقة الكائنة تحتها، فتفرح وينشرح صدرها لمساهمتها في تعزيز هذا الجمال الحسي القائم نصب عينيها.

في المدينة، كان الربيع ينساب أمامها وهي في غفلة عنه. أما هنا، في الجبل، فقد كان الربيع يعود للحياة وهو يغمر حواسها بفيض من كل عطر ولون.

راحت تفكر. سيبقى هذا الربيع عالقاً في ذهني حتى آخر أيامي، على الرغم من كل شيء.

تحولت الحياة في روزوود الى رتابة مملة من الساعات المتتابعة. وفيما كان الياس يعمل بمفرده في الاستديو، كانت مادلين تمضي وقت الصباح في حديقة الورد، وهي غارقة في جمال الطبيعة الخفية. تلك ساعات صفائها الحقة، لا يعكر صفوها أي شيء.

اما فترات بعد الظهر، فكانت تقضيها مع الياس في الاستديو، وهي عاكفة على عملها، في عزف البروفات وتكرارها، فيما كان هو يمرر يديه في شعره، وهو عابس وغير راضٍ مطلقاً عما كان يقوم به. فقد كان واضحاً أنه يدورُ في حلقة من الإحباط في تأليفه وإبداعه ولم يستطع ان يجد منفذاً. ثم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً فيما هو يشتم ويكسر الأقلام ويمزق الأوراق، حتى أنه في الأمس ضرب بقبضته على الحائط، ولكن، لم يكن يلومها لأجل هذا الاحباط. فقد كانت محادثتهما محدودة في إطار الموسيقى ولم تتعداها الى شيء آخر، وكان كلما خاطبها بقي حريصاً على ابقاء نبرته ناعمة ولطيفة ومزاجه مكبوحاً، وطبعه هادئاً.

كأن مليون سنة قد مرت منذ ان تصافحا بالأيدي لأول مرة وتعاهدا على الصداقة، وفي استعادته للأحداث الماضية والتأمل فيها بدت هذه الصداقة مادية.

ففي كل الساعات التي امضياها سوية لم يتبادلا الحديث إلا في الموسيقى. كانت الرابط الوحيد بينهما. وحتى هذه، في الوقت الحاضر بدأت عراها بالتفكك بسبب إلهامه المتدفق. لشد ما كان يزعجها ظنها بأن تكون هي الملامة في عزفها وأنه على وشك استبدالها بغيرها، وان

معاملات توقيفها عن عزف عن الموسيقى قد بدأت. في الأيام الثلاثة التي تلت بقي الياس سجين الاستديو، رافضا الذهاب الى المنزل لتناول وجبات طعامه، وأخذ يتحاشى رفقتها ما استطاع. أما هي فقد كانت تعيش يومها في مرمى مناداته، في حال احتاج إليها.

كانت بيكي تحضر يومياً لتنظيف المنزل وتحضير الطعام، وعلى الرغم من ان وجودها كان يخفف من هذا الصمت المخيم على المنزل، إلا ان مادلين لم تكن تشعر بارتياح لوجودها. وكأن نظراتها المذهلة وعلاقتها الودية مع الياس لم تكن بكافية لارعابها، فقد كانت مادلين تشعر بأن تياراً خفياً من العدائية بات يسري تحتها من دون ان تدرك كنهه، لأنه لم يكن موجوداً قبل ذلك.

خلصتْ في استنتاجها الى ان الياس قد يكون افضى إليها بأن عازفته الجديدة كانت تضيق الخناق عليه بطريقة ما، وتثير عند بيكي غرائزها الدفاعية الى اقصى درجة.

لم تكد تصل الى آخر استنتاجها، هذا، حتى ظهرت بيكي. فقد سمعت مادلين صوت سيارتها وهي تقف في الطريق الخاصة خارجاً، ثم فتح الباب الأمامي وأغلق وراءها.

كشرت تكشيرة لا شعورية لدى علمها بدخولها الى

المنزل، إلا انها سرعان ما شعرت بالذنب وهي تدغدغ هذه الفكرة. ليست الغلطة غلطة بيكي إذا كانت قد ولدت جميلة، ولا في ان يكون الياس قد راح يشعر إزاءها بمشاعر وأحاسيس لم يكن ليشعر بها تجاه مادلين. تنهدت وهي تستعيد ذكرى اطباق الفطور المغطاة بمناديل السفرة والتي كانت بيكي تصعد بها الى الاستديو كل يوم فيما كانت هي تتناول طعامها وحيدة في منزلها. ونادراً ما تعود بيكي أدراجها قبل مضي ساعة، ولم يكن ذلك يحتاج الى عناء كبير في تصور كيف كان الاثنان يصرفان تلك اللحظات.

عندما نزلت مادلين الى الطابق السفلي كانت بيكي منحنية على الارض وهي عاكفة على فرك ارض المطبخ فيما كان شعرها مشدوداً الى الوراء تحت شريط أزرق. وكانت كالعادة ترتدي بنطال الجينز المقصوص وقد صار زيها العملي في عرف مادلين. وإلى ذلك، فقد كانت مرتدية قميصاً من دون كمين، بهت لونه الأحمر واقترن بلون من الزهر الضبابي. وقد بدت، كما العادة، مذهلة. جلست على عقبيها وراحت تمسح بأعلى ذراعها على حاجبيها فيما كانت مادلين تدخل الى الغرفة.

استهلت بيكي كلامها قائلة:«القهوة جاهزة، أظنك تستعدين لقضاء صباح آخر في الحديقة.»

اشارت مادلين بأناملها الى شعرها المعقوف كذنب المهر في قمة رأسها وراحت تحدق في الجينز الباهت والرث وقميصها ذا المربعات الفضفاض. وقالت:«لدينا الكثير من العمل لنقوم به.»

هزت بيكي رأسها وهي تقول:«لقد كانت والدة الياس تهوى هذه الحديقة، مثلك تماماً.» ترددت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة وأضافت:«لربما هي الآن تشعر وترى هذا المكان وهي تضحك ضحكة عريضة إذ قد جاء من يرعى ورداتها ويهتم بها.»

كان ذلك أول محصلة من الاخبار عن هذه السيدة التي جعلت من هذا المكان منزلاً مثالياً وهي تغذيه بحبها. وعضت على شفتها السفلى ثم قالت:«هل كنت تعرفينها جيداً؟»

اومأت بيكي برأسها وقالت:«ليس بالشكل الذي كنت احب فيه ان اتعرف إليها. فقد انتقلت الى برايتون سكوير قبل سنة من وفاتها.»

«ولكنك اعجبت بها.»

«بل احببتها، فقد كانت سيدة رائعة.»

قالت مادلين:«اعتقد انها كانت كذلك.» ثم غرقت في تفكيرها وهي تتذكر كل تلك اللحظات التي شعرت فيها بحضور تلك السيدة المحبب في المنزل، ثم اضافت:«لهذا السبب لم أكن أعلم لماذا كان الياس يكره هذا المنزل.»

راحت بيكي تحدق في عينيها بنظرة ملؤها الوعيد ثم قالت:«لا تعلمين شيئاً عن الياس، أليس كذلك؟»
بدت وكأنها في مجال الاتهام، فيما هزت مادلين برأسها وهي تشعر فجأة بأنها مذنبة لجهلها.
قالت بيكي:«حسناً، يجدر به ان يصارحك بما يريد منك ان تطلعي عليه، وليس أنا.» ترددت وكأنها قد ندمت لكونها كانت مقتضبة على هذا النحو الفظ أضافت قائلة:«لم أكن اقصد ان ارفع صوتي في وجهك. اعتقد انك تعانين بما فيه الكفاية بالعمل مع إيلي.»
اخفضت مادلين من نظرتها وراحت تغمغم قائلة:«لم يعد يفعل ذلك كثيراً الآن. او على الأقل، فهو يحاول ان لا يفعل. لقد توصلنا الى اتفاق.»
اجابت بيكي ببساطة قائلة:«هكذا سمعت او هكذا تناهى الى مسمعي.» أضافت وهي تنظر في دلو الماء الممزوج بالصابون بطريقة ساخرة:«لم أصدقه حين قال لي الياس إنكما تعاهدتما على ان تكونا صديقين.»
افلتت الكلمات من فم مادلين قبل ان تدرك انها ستتفوه بها:«لا اعجبك كثيراً، أليس كذلك؟» رمقتها بيكي مندهشة.
قالت بيكي:«لا اعرفك تماماً.» قطبت حاجبيها فيما راحت تتفحص مادلين ثم اردفت:«تذكرينني قليلاً بوالدته. فقد كانت وسيمة مثلك، وباردة مثلك تقريباً.»

نظرت الى ثوبها ثم قهقهت فجأة وقالت:«لم يكن للموت ان يفاجئها ابداً وهي في لباس كهذا. أما نمطها فكان في القبعة البيضاء والقفازين وفستانها الشفاف.»
غمغمت مادلين:«لا يتوجب علي ان ارتدي الأبيض. فقد أكون تلاشيت.»
تنهدت بيكي:«ليس هذا ما يقوله الياس.» وانحنت لتستأنف عملها في فرك ارض المطبخ قبل ان تتفوه مادلين بأي حرف وتابعت:«النساء أمثالك يبدين جميلات في كل ما يرتدين. إني أشعر بالغيرة منهن حتى الموت، بصراحة.»
راحت مادلين تحدق بشعر بيكي وهي مأخوذة بشعرها اللماع وهو يهتز مع حركات ذراعيها النشيطتين وهمست:«ولكنك بارعة الجمال، فأنت اجمل امرأة رأيتها في حياتي.»
جلست بيكي على عقبيها مجدداً ونظرت إليها نظرة ملؤها الحيرة:«جميلة ربما، ولكن لست ببارعة الجمال. ليس مثلك.»
مالت برأسها الى مادلين وهي تنظر بتجهم قائلة:«يا للهول، حتى انك لا تعرفين هذا، أليس كذلك؟»
بلعت مادلين ريقها، وهي ترف أهدابها فيما راحت بيكي تقهقه عالياً. وفجأة، وكأنها تذكرت انها لا تحب مادلين، انحنت على عملها وقالت بصوت

اجش:«والآن، خذي فطورك واخرجي من هنا. فأنا سأغادر اليوم عند الظهر، وأمامي الكثير من العمل لانجازه قبل ذلك.»

ترددت مادلين لبرهة ثم همست:«لقد نسيت شيئاً فوق.»

تحولت مهرولة في الرواق، وصعدت السلالم في أقصى سرعتها وكأن هذا الشيء كان على أهبة ان يختفي قبل ان تسنح لها الفرصة برؤيته. دخلت غرفتها بسرعة وتوقفت عند المرآة، وهي تلهث وقد راحت عيناها تتسعان من الدهشة والتساؤل.

جميلة؟ تجهمت اساريرها قليلاً وهي تتفحص نفسها في انعكاس صورتها في المرآة. فقد اكتسبت بعضاً من اللون بسبب تواجدها الدائم في الخارج، ولكن، فيما خلا ذلك، فقد كانت تبدو رقيقة ولطيفة كما كانت هي الحال دائماً بعينيها الرماديتين بلونهما الفاتح، بشرتها الفاتحة ايضا، على الرغم من تعرضها للشمس، شعرها الفاتح ايضاً وهو مرفوع الآن على شكل ذنب المهر... وكل شيء فيها كان اشبه بتلك الصورة التي تعرضت كثيراً للشمس فبهت لونها. إلا ان ذلك ليس بالجمال. فالجمال يستدعي الانتباه. وكل انسان يعلم ذلك. فالجمال يتجسد في أشخاص امثال بيكي ممن يفضن حيوية ولوناً، حيث تستدير الوجوه اليهن مراقبة.

تنهدت وهي تشعر بانخداعها، وكأن بيكي قد اعطتها

هدية ملفوفة بورق ملون، تبين فيما بعد أنها علبة فارغة. عثر عليها الياس بعد ساعة في حديقة الورد وهي منحنية فوق مجموعة من الأغصان الهشة والجافة. وهي تزيل عنها ما علق فيه من أوراق وحشائش صمغية، وتمهد كومة التراب بعناية.

تناهى صوته من ورائها:«انك تضيعين وقتك.» أدارت رأسها بسرعة، مندهشة.

عندما رأى وجهها ابتسم في الحال، ثم بطريقة لا شعورية، مد يده ومسح بقعة من التراب كانت عالقة على طرف انفها، ثم قال:«رائع.» ارتبكت فجأة لشكلها الخارجي. فقد كان سروالها رطباً وأسود اللون نزولاً من عند الركبتين وفيه أخاديد طويلة من التراب العالق على جانبي ساقيها حيث مسحت يديها. استطاعت بطرف عينها ان ترى خصلتين من شعرها قد تحررتا من عقدتهما وأصبحا طليقتين في النسيم العليل. مدت يدها لتمررهما خلف أذنيها ثم توقفت فجأة وقد أدركت ان يديها كانتا ملطختين بالتراب. قام الياس بذلك جالساً القرفصاء قريباً منها، وأخذ يراقب يديه وهما تمسكان تلك الخصلات المنتشرة التائهة وتثبتهما.

اخذت مادلين تراقب وجهه وقد أثار دهشتها كم بدا مختلفاً تحت اشعة الشمس، بعيداً عن اضواء الاستديو الاصطناعية. كانت خضرة عينيه تتناغم

مع براعم شجيرات الليلك في مؤخرة الحديقة خلفه.
مال برأسه باتجاه خميلة الورد وقال:«انها، يابسة انت تعلمين ذلك.»
تمتمت:«لا.» ومدت يديها نحوه وأمسكت بأنامله وقادتها الى حيث كانت علوج التطعيم في قاعدة الخميلة، تحت التراب. اضافت:«تحسس ذلك؟ تلك القطعة القاسية في ساق النبتة؟ ثم هنا، بلطف الآن... ذلك النتوء البسيط؟ هذه هي البداية.»
ابتسمت وهي تنظر الى العيدان القاسية والجافة وقد سحرتها معجزة الربيع الناهض من غفوته.
وقالت:«أليس ذلك أكثر الاشياء إثارة للدهشة؟ ان تشعر به تحت خفق نبضك؟»
عندما حدقت في وجهه ثانية، اربكها تعبيره. للحظة، فقط لحظة، كانت عيناه تعكسان أحاسيس قلبها، حنانه الظاهر في نظرته الناعمة... ولكن فجأة تجمدت أساريره وسحب يده منها بفظاظة.
شد على ركبتيه ووقف وكأن تلك اللحظة لم تحدث قط، نظر حوله الى العشرات من شتل الورد التي كانت مادلين قد عملت على تنظيفها من الحشائش الغريبة. وشذبت الارومات القصيرة في جذع الشجرة وقال:«لم ألاحظ من قبل كم عملت هنا.»
«لا أدري كيف كان باستطاعتك ان تلاحظ؟ فأنت لم تغادر الاستديو منذ أيام.»

رمقها بنظرة فيما راحت هي تنظر الى يديها المسبلتين، وكأن شيئاً في عينيه قد جعلها تنظر الى ذاك المكان.
قال بنبرة هادئة:«إني مغادر الاستديو اليوم. يمكنك التمرين فيه إذا احببت او تأخذين فرصة بعد ظهر هذا اليوم. لن أعود قبل المساء.»
ارتخت كتفاها ببطء فيما كانت تراقبه وهو يبتعد باتجاه المنزل،الى حيث بيكي. وكانا قد غادرا حين دخلت المنزل لتتناول طعامها.
وقفت في رواق المطبخ وهي مذهولة من حدة ما كانت تشعر به. فلم تكن الوحدة، او الحسد، الغيرة، او خليط لهذه المشاعر. فقد كان اعمق من ذلك وأقوى... أشبه ببذرة متنامية من الثورة، ليس فقط كونها منبوذة بل لكونها غير جديرة بالاعتبار ايضاً. فقد غادر مع بيكي من دون الاهتمام على تركها بمفردها، وكأنها اضحت مثل الآلات التي تطفأ عندما لا يحتاج إليها. بالنسبة له فهي ليست بإنسان من لحم ودم، بل زوج من اليدين لا وظيفة لها خارج لوحة المفاتيح. فالمرة الوحيدة التي اعترف فيها بوجودها كانت عندما أدت أداءً أشبه بأداء الحيوان المدرب في الاستديو، ولكنها، هي اكثر من ذلك. فهي كائن بشري ايضاً، امرأة، مثل بيكي... وقد آن الأوان كي يلاحظ ذلك.
امضت اطول وقت حتى فترة بعد الظهر وهي تستحم

وتغسل شعرها وتهتم بنفسها وجمالها وتعزز قوتها البدنية عبر تلك الحركات الرياضية التقليدية التي لم تكن لتلجأ إليها قبلاً.

انتهت عند الغسق وكانت سعيدة من جراء ذلك. وأعجبتها الطريقة التي كان فيها النور الوردي يجمل صورة وجهها، ولم يرق لها شيء في منظرها الخارجي وقد ادهشتها صورتها المنعكسة في المرآة. عملت على رفع شعرها فوق قمة رأسها فيما كانت بعض الخصلات متدلية فوق حاجبها ومعقوفة فوق أذنيها. وأسرفت في وضع المكياج وبدت عيناها خامدتين وراء رموشها الكثيفة وقد جعلها الكحل تبدو أكثر سواداً.

ارتدت فستاناً من دون كمين، باللون الأزرق الفاتح، لقد اشترته لحضور احدى حفلات تلامذتها الموسيقية. تلك هي المرة الأولى التي ارتدته. في ذلك الوقت شعرت بالإرتباك لأنه ضيق، وسخرت من ياقته العالية،لكن الآن هي مسرورة لارتدائه. فقد بدت تنورته واسعة وتلتف حول وركها عندما تتحرك، امتحنت تأثير ذلك امام المرآة بعينين واسعتين وجلتين. فلم يكن باستطاعتها ان تحدد الخط الذي يميز بين ما هو مغر وما هو سيء الذوق، غير ان شيئاً واحداً كان اكيداً وهو أنه لن يكون بمقدوره ان يتجاهلها وهي بهذا الثوب.

فكرت، إذا حاول ان يختبىء في الاستديو مجدداً الليلة، فسأخرج وأنا اتهادى بحذائي ذي الكعب العالي وألح عليه ان يأخذني الى العشاء. فهذه الليلة لن اتناول طعام العشاء بمفردي.

ترنحت قليلاً وهي تتهادى بحذائها ذي الكعب العالي عندما سمعت الباب الأمامي يغلق بعنف.

كان واقفاً عند آخر السلم عندما نزلت وكأنه كان ينتظرها لتعلن عن دخولها. بادلته النظر بجرأة فيما هي تنزل الدرجات وهي تشعر بحفيف الحرير على ساقيها. ابتسمت لدى سماعها صوت تنفسه.

راحت عيناه تجولان عليها، ثم توقفتا عند عينيها في نظرة باردة وكأنها قوة ملموسة تنذر بدفعها الى الوراء.

قال باشمئزاز ظاهر:«كدت أنسى اليوم الذي نحن فيه.» ثم ومن دون ان ينبس بكلمة، استدار ومشى بعيداً في البهو عابراً المطبخ وخارجاً من الباب الخلفي وقد اغلقه بعنف وراءه.

وقفت مادلين على السلم وقد شلت حركتها وهي مصعوقة من ردة فعله، وأفكارها تردد مراراً وتكراراً ان كون المرء غير مرئي ليس امراً سيئاً، لكن ان يشاهد، ثم ينبذ، فهذا أسوأ، اسوأ بكثير.

الفصل التاسع

لم تدر مادلين كم مضى عليها من الوقت وهي واقفة على السلم وقد مات فيها كل حس وفكر بعد خروج الياس من الغرفة ببرودة ظاهرة. لكنها بدأت تدرك ذلك لدى سماعها نقرة خفيفة على الباب الأمامي، ولدى شعورها بوخزة في يدها القابضة على حاجز السلم. كأن تلك القبضة كانت كل ما يمسك بها عن الوقوع.

عادت الى وعيها وقالت:«أدخل.» وسمعت صوت حفيف الثوب فيما هي تتحرك.

دخل دافيد من الباب، ونظر إليها، ثم همس قائلا:«واو.» وراحت عيناه تطوفان حول شعرها وفستانها، وبلع بريقه كتلميذ تملكه الاضطراب وحملق بها بنظرات اعجاب جعلت مادلين تشعر بأن الثقة بالنفس التي سحقها الياس تعود إليها ببطء.

همست قائلة:«شكرا، يا دافيد.» وهي تهبط بقية الدرجات. عانقته، ويداها تستريحان على كتفيه العريضتين وهي متعجبة من كونها قد صارت قادرة على الاتيان بهذه الحركة. كان الأمر سهلا مع دافيد إذ ان ما يبدو منه، ان يشجع تلك الظاهرة العاطفية نحوه. قالت مادلين وهي

تقترب منه:«لن تدري ابداً كم انا بحاجة لذلك.» تلمست يداه خصرها وانحنت الى الوراء وهي مأخوذة بنظرته الساحرة. كان تعبير وجهه غريباً عن ملامحه العادية، الواثقة. كما كان الصمت غريباً عن طبيعته، وشعرت مادلين بلمعان إطراء لا يحتاج الى كثير من الكلام.

ابتسمت وهي تحدق في عينيه وخصلات شعره المتشابكة، الداكنة على رأسه وقالت له:«تبدو في غاية الجمال هذه الليلة.» ولاحظت ان قميصه الأزرق يتناسق في لونه مع فستانها وكان ذلك أشبه بالمصادفة الغريبة.

نفخ صدره وأطلق تنهيدة،وكأنه يستعيد قوته الخطابية. وقال:«لن أحاول حتى ان اقول كيف تبدين. فلم يخترعوا بعد الكلمة المناسبة.»

احمرت مادلين وأزاحت هذا الإطراء جانباً بهزة من كتفها.

سألها:«هلا نذهب؟»

ترددت مادلين وقد قطبت جبينها ثم سألته قائلة:«الى أين؟»

«الى العشاء، بالطبع. فلدينا حجز في الهيل توب إن... ألم يقل لك الياس بأني قادم؟»

عضت على شفتها وتجهمت قائلة:«في الواقع ما قاله لي هو انك لن تأتي...»

رد عليها قائلاً:«ولأنه قال بأني لن آتي، فقد أخذت بكلامه.»

حاولت مادلين ان تبتسم وقالت:«في الحقيقة لقد حاولت ان اتصل بك وأقول لك بأن تأتي بأي حال، ولكن كنا مشغولين كل هذا الوقت...» وهزت كتفيها وهي تحاول التهرب من سؤاله وتتساءل كيف غاب هذا الشيء عن ذهنها. وأضافت:«اعتقد انني نسيت.»

تردد قليلاً، ثم تكلم ببطء وعيناه تطوفان في حيرة ظاهرة فوق شعرها وفستانها:«تعنين انك لم تتوقعي قدومي؟»

امسكت عن التنفس للحظة وذهنها يفتش عن عذر يبرر مظهرها الخارجي، ولم تلبث ان افرجت عنه ضحكة واهنة وقالت:«كنت على وشك بأن أذهب الى العشاء بمفردي. فقد مللت ارتداء سراويل الجينز وقمصان الرياضة والبقاء محبوسة هنا...» توقفت قليلاً وتنهدت وهي تنظر إليه وأضافت بصراحة كلية لا غبار عليها:«ولكنك لا تعلم ابداً كم انا سعيدة لكوني في صحبة أحد. خصوصاً صحبتك.»

رفع ذقنها وهو يتفحصها بعينيه. خفضت عينيها بدل ان ترد عليه، فيما أخذ يسألها عن الياس:«أين الياس؟ ينبغي ان أحيّه على الأقل قبل ان نغادر...»

اجابت من دون تفكير:«ألا يمكن تأجيل ذلك؟ في

الحقيقة، إني جائعة.» تناولت شالها الخفيف وحقيبتها واستدارت نحوه وهي ممتلئة حبوراً. فقد كان واقفاً ويداه في جيبيه وهو يحدق فيها بفضول.

«بالطبع يمكن تأجيل ذلك، في الواقع ليس من الضروري ان أراه.» أمسك بيدها وهو يبتسم لها بتعبير جعلها تشعر ان دافيد كان حساساً ويعرف بالحدس اكثر مما يظن معظم الناس. ثم أردف:«تعالي، دعيني آخذك بعيداً عن هنا.»

يقع مطعم هيل توب على رابية تطل على البلدة الصغيرة، على بعد بضعة أميال عن روزوود. كان مكاناً انيقاً وبعيداً عن الإدعاء بأرضيته الخشبية وجدرانه القرميد.

قالت مادلين بعد ان جلسا الى الطاولة في إحدى الزوايا قرب الموقد:«إنه لمكان جميل.»

«إنه مكان مثالي لك.»

كان ذلك احد الاطراءات البديهية التي كان الناس يستعملونها في تلميحاتهم، ووجدت مادلين نفسها تستمتع بها قليلاً. تنهدت وهي تهز رأسها ثم قالت:«إنك دائماً تقول ما تمليه المناسبة، يا دافيد. فالإطراء من اختصاصك، أليس كذلك؟»

مال برأسه، وقد ارتسمت على وجهه علامات من الحيرة المزدوجة بالدهشة وقال:«وهل يزعجك الإطراء؟»

ابتسمت بنعومة وقالت:«لا، بالطبع لا. لكن أحس بأنك تردد ما قلته لي مئات المرات. فقد قلت انك تمثل الجزء اللطيف في الشراكة القائمة بينك وبين الياس. إنه جزء من عملك، أليس كذلك؟ تعمل على تلطيف الاجواء فيما يعمل الياس على تعكيرها.»

كان غارقاً في سكون تام. ولم يحول عينيه الداكنتين عنها بل بقيتا عالقتين بعينيها. وأخيراً أجاب:«نعم، إنه جزء من عملي وهنا تكمن الصعوبة، أليس كذلك؟»

وتقوست شفتاه بابتسامة هازئة وأشار الى النادل وهو يقول:«لا أحد يعلم متى أعني ما اقول فعلاً.»

بعد ست ساعات، وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان دافيد يضغط بأصبعه على شفتيه اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة سخيفة وقال بصوت هامس:«صه، يجب ان لا توقظي التنين.»

هزت مادلين رأسها بارتباك وهي تتهادى تحت ثقل ذراعه الممدودة حول كتفيها فيما هما يترجلان من السيارة باتجاه المنزل. قالت:«التنين لا يزال نائماً.»

خاطبت نفسها، فيما تحاول العثور على المفاتيح في داخل حقيبتها.

بحركة خرقاء حاول ان يمد يده حول كتفها مجدداً ولكنه لم يفلح إلا في إزاحة شعرها وتحريره من الدبابيس، فطار الزر الذي كان يربط فستانها عند الرقبة.

دفعت الباب برجلها الى الوراء وهي تئن تحت ثقل جسمه فيما كانت تحاول ان تسحبه الى الداخل في محاولات يائسة. اسندته مقابل الجدار وحاولت تثبيته بيدها فيما امتدت يدها الأخرى لتضيء النور في الغرفة ثم تحولت مسرعة لإغلاق الباب وإقفاله خلفهما...

تحولت لتضع حقيبتها وشالها على الطاولة في البهو ولم تتمالك نفسها حين رأت الياس متكئاً بصمت الى باب غرفة الجلوس. تراجعت قليلاً الى الوراء وقلبها يخفق خفقاناً سريعاً لما أثار وجوده من إجفال.

كان واقفاً بصمت، وقد غادرت الحيوية عينيه، وخلا وجهه من أي تعبير. وكانت أخاديد عميقة تشق طريقها عبر شعره وكأنه مرر يديه خلاله مرة إثر مرة، وتدلت خصلات عنيدة من شعره الداكن فوق جبينه. نظر الى دافيد ثم عاد لينظر الى شعرها وفستانها المتجعد.

وضعت يدها على شعرها بطريقة لا شعورية قائلة بارتباك ظاهر:«لقد أصيب دافيد باعياء مفاجيء.»

«ذلك واضح.»

انتظرت ان يكمل حديثه بيد أنها تحولت عنه وقد صار الصمت مربكاً بينهما ومضت لتنحني الى جانب دافيد وجعلت تملس خصلات شعره الداكنة وتردها الى الوراء.

قالت وهي تتظاهر باللامبالاة:«هل ستساعدني لنرفعه الى الطابق العلوي؟»

سمعت وقع خطواته وهو يقترب منها ورأت يديه العريضتين، القويتين تمتدان وترفعان دافيد. تنحت قليلا من طريقه.

نظر الياس إليها وسألها:«الى غرفتك أم الى غرفة الضيوف؟»

تنهدت قائلة وهي تغمض عينيها:«بلا مزاح، ارجوك. إني تعبة.»

«وما يجعلك تظنين بأني أمزح؟»

فتحت عينيها ونظرت إليه وهي تحاول ان تقرأ تعابير وجهه، إلا ان وجهه بقي خاليا من أي معنى. تحولت اخيرا الى إحدى الغرف الملاصقة لغرفتها في الطابق العلوي.

اضاءت نور الغرفة ورفعت الغطاء عن السرير وتنحت جانبا من الغرفة فيما راح الياس يمدد دافيد على الفراش ويخلع عنه حذاءه، وسترته، ثم وضع عليه الغطاء برفق ونعومة يثيران الدهشة، وكأنه أبا يساعد ابنه الصغير في الايواء الى فراشه.

تراجع قليلا الى الوراء وهو يتمطى فكاد ان يصطدم بها. وصعقا لكونهما قد صارا متلاصقين، التقت اعينهما للحظة، ثم راحا ينظران الى أسفل وكأنهما قد تملكهما الرعب لما شاهداه في نظراتهما.

امسكت مادلين عن التنفس، فيما راحت تحدق في يده اليمنى التي باتت قريبة من يدها اليسرى حتى لكادت أناملهما ان تتلامس.

انقطع تنفسها وهي تنتظر وتنظر، وقد ملكتها الدهشة، أناملها ترتفع قليلا باتجاه انامله في حركة آلية. وكأنهما يمثلان في مسرحية لا أحد منهما كان باستطاعته التحكم بها او السيطرة عليها. وعندما لامست اطراف أناملها، وبطريقة عرضية، ربما، كانت نتيجة الاتصال مذهلة.

اخذت مادلين نفسا عميقا ورمقته بطرف عينها فرأته يتقدم نحوها. بنظرة مختلسة الى أعلى رأت التوتر حول فمه وعينيه، والأخاديد المرتبكة في حاجبيه وهو ينظر إليها عاجزا عن التحكم في ما كانت يده تقوم به.

راحت أنامله تصعد الى أعلى يدها وهي تعبر التجاويف في أوتار يدها، ثم أحاطت بالمعصم برفق حتى شعرت بصعوبة في التقاط انفاسها.

فتحت فمها من الدهشة وفي محاولة لاستعادة قليل من الهواء فيما كانت عيناها زائغتين. فتحتهما على وسعهما مذهولة.

أدار الياس ظهره سريعاً وقال بصوت أجش مسموع:«تبا لك.»

مدت يدها لتلمسه وقد انعقد حاجباه في حيرة وقبل ان تلمس يدها ظهره قال:«اخرجي من هنا.» فجمدت

في مكانها ويداها لا تزالان ممدودتين في حركة بلهاء. عندما لم تتحرك امسك بيدها وراح يجرها الى البهو ودفع بها بقوة الى غرفتها. فنظرت إليه وقد أخذت منها الدهشة مأخذاً.

كان يحملق بها وكأن خضرة عينيه كادت ان تنسكب باتجاهها وسألها ببرودة قائلاً:«ما الذي جعلك تظنين أني كنت سأنهي ما بدأه غيري؟»

سكن تعبيرها وشحب لونها وهمست قائلة:«لا أصدق انك قلت ذلك.» وأسرعت الى غرفتها فدخلتها وأغلقت الباب وأقفلته وراءها. ولم تدر كم مضى عليها وهي مستندة الى الباب تحملق في الظلام حين سمعت طرقة على الباب.

سمعته يقول لها من خلال الباب الذي كان يخنق صوته:«مادلين. مادلين، ارجوك. علينا ان نتكلم. دعيني أدخل.»

اخذت تخاطب نفسها وهي تبتسم بمرارة:دعيني أدخل. تلك كانت المشكلة منذ البداية. أدع شخصاً يدخل، ما كان يجب ان افعل. تركت نفسي أشعر من جديد، وما كان يجب عليّ ذلك.

«مادي؟ مادي! دعيني أدخل.»

من دون ان تصدر صوتاً راحت تتمتم كلمات اغنية ساخرة للأطفال، ثم دفنت وجهها بين يديها.

الفصل العاشر

استفاقت مادلين على صوت الرعد وهو يدوي بعيداً. فتمددت ساكنة في فراشها لبرهة من الوقت وهي تحدق في السقف وذهنها شارد ومرتبك. تنهدت اخيراً ونهضت من فراشها واجتازت الغرفة حتى وصلت الى النافذة ونظرت الى الطقس المكفهر في الخارج بعد أول عاصفة مطرية. كان كل شيء يبدو مبللاً وكئيباً، حتى حديقة الورد، غرقت في الوحل، وكان ذلك مفيداً لها على ما يبدو.

ارتدت ثيابها بحركة بطيئة تعوزها الحيوية والنشاط فيما كل أحاسيسها مخدرة، حتى أنها لم تعد تجرؤ على مقابلة الياس بعد الذي جرى في الليلة الماضية. ماذا يهم لو ظن الياس انها تصاحب دافيد، او أنها متحجرة القلب الى درجة ان تقبل ببديل عنه في اللحظة الأخيرة؟ فمجرد إقدامها على عمل كهذا يجعل منها امرأة سيئة. واعتبارها كذلك افضل، في الوقت الحاضر، من الاشفاق عليها والرثاء للحال الذي هي عليه. امرأة وحيدة تحاول التمسك بأذيال خيالها ونزواتها في محاولات يائسة، وقد سلب لبها ذاك الوهم في كونها هي والياس باتا جزأين من وحدة متكاملة وعاجزين عن مواجهة تلك القوة التي

تدفع بهما. إلا ان ذلك لم يكن سوى خيالات شبحية لطفل غير محبوب لم تتح له فرصة النمو بعد.
تجهمت أساريرها وهي تحاول التركيز في مضمون تلك اللحظات المشتتة، حين شعرت بشيء أشبه بسلك كهربائي يربطها به... اخذت تخاطب نفسها قائلة، انك ترغبين في إقامة نوعم من الإتحاد الروحي الباطني مع الياس، إلا ان ذلك لم يكن موجوداً قط بالنسبة إليه.
لقد أرادك الى جانبه، لأنك الشخص الوحيد الذي يعزف موسيقاه كما يرغب في سماعها. ثم بدأت في تعقيد الأمور بطلبك المزيد، حتى أكرهته على نبذك مرةٍ بعد مرة، ازداد الوضع سوءاً وانعكس ذلك نشازاً في العزف. ابتسمت إبتسامة حزينة لأنها لم تعد قادرة على إسماعه ما كان راغباً في سماعه منها.
قطبت جبينها ورفت أهدابها سريعاً وهي تحبس دموعها فيما كانت ترتدي ثيابها. انتعلت جوربين من النسيج الصوفي الناعم وكنزة صوف رمادية سميكة طويلة، ثم سرحت شعرها وتركته يتهدل حيثما أراد. اما عيناها الرماديتان فكانت تعوزهما الحيوية، تحولت عن النظر اليهما في المرآة بعد ان رمقتهما بنظرة خاطفة.
بدا المنزل تحت رحمة العاصفة الهادرة في الخارج.

كئيباً وقاتماً كمزاجها وهي تهبط السلم الى الطابق السفلي، ثم باتجاه الضوء الشاحب الصادر من المطبخ.
امتدت يدها لا شعورياً لتلمس بعض الاشياء القائمة في طريقها. الطاولة الأثرية في البهو وإنائها الفارغ من زهور الربيع، والخشب اللماع لهيكل الباب المؤدي الى المطبخ. اشياء اخرى لم تدرك وجودها إلا منذ أسبوع، وستبقى عالقة في ذهنها حتى آخر أيامها.
احست بقلبها يثب من مكانه وهي ترى الياس جالساً الى طاولة المطبخ. مرتدياً زي الركض السميك من عنقه الى كاحله، ويبدو متوعداً في أساريره، كتلك الطبيعة المكفهرة الموحشة التي كان يحدق اليها من خلال النافذة. إلا أنه بالنسبة لمادلين، بدا حاملاً للوعود. كان هناك شيء ما خلف ذلك القناع البارد المخادع الذي كان يغلف وجهه به... شيء دافيء ومليء بالحيوية، وشيء له قيمة. فقد كان على هذا النحو، شبيهاً بحديقة الورد، وراحت تتساءل إذا كانت قد رأت ايا منهما يزهر.
كانت ذراعاه معقودتين على الطاولة ويداه تحيطان بكوب من القهوة الساخنة. أدار وجهه بسرعة لدى دخولها الغرفة وتدلت خصلة من شعره الأسود فوق جبينه.

حيّته برقة:«صباح الخير.» وعبرت الطاولة الى حيث كان إبريق القهوة. وسألته:«اين بيكي؟»

احست بثقل نظراته عليها فيما كانت تتلمس بارتباك ابريق القهوة.

اجابها:«اليوم يوم سبت، وهي لا تأتي في نهاية الأسبوع.»

رمقته بنظرة فوجدت أنه يركز اهتمامه على سيول الأمطار المنزلقة على النافذة الزجاجية. ملأت كوبها من القهوة السوداء الحادة واتكأت على الرف.

«اعتقد ان دافيد لن يصحو من نومه قبل ساعات.»

هز برأسه وهو غافل عنها.لاحظت كم كان يبدو مرهقاً. بدت الهالات السوداء تحت عينيه وذقنه التي لم يحلقها، وشعره الاشعث، كأنه لم ينم جيداً تلك الليلة.

وثبت من مكانها حين أدار وجهه ليجدها تنظر إليه.

قالت بسرعة في محاولة لإخفاء ارتباكها:«تبدو مرهقاً.»

«وأنت ايضاً.»

هزت بكتفها وراحت تنظر الى قهوتها وهي تتساءل بماذا تجيب ، غير انه قال بصوت أجش ونبرة رتيبة وكأنه في صدد استظهار خطبة عن ظهر قلب:«اريد ان احدثك عن ليلة البارحة وعن الموسيقى، وما

تعتريني من مشاكل في تأليفها. فكل شيء مرتبك ببعضه بعضاً، كما تعلمين. ولكنني لم اشأ ان اعترف بذلك.»

تشبثت مادلين بكوبها بيأس وأخذت تنظر إليه وكأنه يحوي اسرار العالم ولم تستطع ان تنظر بعيداً ثم غمغمت قائلة:«اعلم ذلك. لست مضطراً لأن تقول شيئاً، فأنا السبب في عدم قدرتك على الكتابة.»

بقي صامتاً لوقت طويل، وجازفت باختلاس نظرة إليه وتوهجت وجنتاها بارتباك.

أسند ذقنه بين يديه ونظر من خلال النافذة ثم قال:«إنها غلطتي، لا غلطتك.كان يجب ان احتاط لذلك منذ اليوم الأول الذي التقيتك فيه في شقتك. فقد كان الأمر واضحا...»

توقف قليلاً وقد تجهمت أساريره وتابع قائلاً:«... ان الأحاسيس ستقف حاجزاً أمام أي علاقة عمل بيننا.»

اغمضت مادلين عينيها لبرهة، وقد أحست بعذابها حين تذكرت كيف انهت حياتها بسرعة وشوق كليين لتلحق به. وقد بدت حينها كإحدى المعجبات التائقات لنظرة ورعاية من ذاك الذي كان سبباً في هيامها وافتتانها.

قال:«لقد كنت احسب ان غياب المشاعر هو السبب

في كل المتاعب، ولكن الليلة الماضية اكتشفت انني مخطىء، أليس كذلك؟» ثم استطرد:«انا اعرف ان ذلك لا يفيد بشيء لكن الليلة الماضية... بعد وضوح كل شيء... تهدم السد المنيع. ولم استطع التوقف عن الكتابة. بقيت طيلة الليل أعمل حتى انهيت مقدمة الاغنية.»

حاولت مادلين ان تبقي مشاعرها دفينة في اعماقها. فجأة لم يعد يهمها شيء مهما كان. العزف هو كل ما يريد منها، فكل ما كان يهمها هو اليوم وربما غداً، ان تخرج وإياه الموسيقى الى العلن، وان تبقى الى جانبه أطول مدة ممكنة.

تابع الياس قائلاً:«ليس علينا ان نشعر، بنفس المشاعر والأحاسيس تجاه بعضنا بعضاً كي نصنع الموسيقى، يا مادلين. وان كانت الموسيقى هي كل ما نقوم به سوية، فهي أكثر بكثير مما يستطيع الناس تحقيقه في حياتهم.» كانت عيناه وهو يتكلم بليغتين في نظرتهما العميقة، لطيفة وناعمة بما تكنه من احساس غير مقروء.

ابتلعت ريقها بصعوبة وحاولت ان تحبس دموعها. هذا معنى كلامهم، عندما تكلم الشعراء القدامى عن الحب الذي لا يعوّض ولا يجازى. فهذا ما يعتبرونه آلام التضحية بكل شيء... في تقديم حياتك وكبريائك احترام الذات على مذبح التضحية... من

أجل ان تكون قريباً من الإنسان الذي لا يمكن ان تعيش في منأى عنه حتى وأنت تعلم ان شعورك لن يكون متبادلا.

راحا يحملقان ببعضهما بعضاً فيما حل صمت مطبق واضح مرتبك بينهما حتى كاد ان يملأ الغرفة ويخنقهما معاً، دخل دافيد فجأة الى الغرفة بسرعة وفي نشاط صاخب، مثل ولد صغير بريء يخرج مسرعاً، لا كرجل كان يعاني من مشاكل صحية. وألقى التحية عليهما قائلاً:«عمتما صباحاً.»

حاولت مادلين ان تبتسم إلا أنها اخفقت في ذلك.

ضحك دافيد وهو ينظر إليها وقال:«اعتقد انك ساعدتني على المشي ليلة البارحة.»

هزت برأسها وهي تشير الى الياس وانحنى دافيد انحناءة ساخرة وقال:«شكراً، يا صديقي القديم، واعتذاري منك، يا آنستي.» مشى الى حيث كانت جالسة فجثا على ركبتيه قبالتها وقد بدت قسمات وجهه نادمة على نحو ساخر وأردف قائلاً:«لقد تصرفت بفظاعة ليلة البارحة، ولك كل الحق في ان تغضبي مني... مع أني واثق من عدم قدرتي على احتمال ذلك إذا حصل.» ونظر إليها وكأنه يطلب منها المسامحة، غير ان مادلين شعرت بتيار خفي من الندم الحقيقي.

قالت بهدوء:«لا بأس عليك، يا دافيد.» فيما كان يقف، ويبتسم وقد ترك فيها شعوراً بالغباء كونها صدقت جديته.

قال وهو ينظر الى الياس:«الحقيقة، انها حاولت ان تضيع رشدي ثم حاولت ان تصل الى مبتغاها مني. لكنني قاومت حتى النهاية. وأظن انك فخور بذلك.»

هزت مادلين رأسها بارتباك ظاهر، اما الياس فرفع احد حاجبيه الداكنين وقال بجدية ظاهرة:« الحقيقة هي أنه في كل تلك السنوات التي قضيناها معاً، لم ألمحك ابداً بهذه الصورة.» وبعد تردد بسيط حدج دافيد بنظرة متمعنة وتابع قائلاً:«لماذا ليلة البارحة بالذات؟»

توقف دافيد عن الضحك لحظة، ثم اخفى ارتباكه بضحكة متوترة وهزة كتف ملؤها الاستنكار وقال:«اعتقد ان هناك دائماً اول مرة في كل شيء.»

ووثبت مادلين من مكانها لدى تصفيقه بيديه وتابع قائلاً:«الآن، من يريد افضل عجة لم يذق أحد مثلها في حياته؟» سار الى البراد في خطوتين طويلتين ثم دلف بجسمه في الاعماق وهو يفتش في محتوياته قائلاً:«هلا احضرت بعض الصحون؟ لدينا الكثير من الاعمال لنناقشها معاً. ومناقشة الاعمال تصبح افضل بعد الأكل.» راح يثرثر على

نحو متواصل، فيما هو يحضر العجة، بسيلٍ من المواضيع المتشابكة، سائلاً نفسه تارة، ومجيباً عن اسئلته طوراً، وهو غافل عن صمت رفيقيه.

جلسوا جميعاً الى الطاولة. دافيد الى رأسها والياس ومادلين في الجهتين المتقابلتين وتغيرت نبرة دافيد وتصرفه وأصبح اكثر جدية.

إستهل قائلاً بكآبة وهو يقطع العجة بشوكته ويتفحصها قبل وضعها في فمه:«حسناً يا ولدّي، هل انتما جاهزان لكي تصبحا نجمين؟»

اختلسا، الياس ومادلين، نظرة خاطفة الى بعضهما بعضاً ثم تحولا الى دافيد وهما حريصان على ابقاء تعابيرهما طبيعياً.

سأله الياس:«عمّ تتكلم؟»

ضحك دافيد وهو يهز حاجبيه وقال:«فكرة بارعة لتحقيق هدف وجعلنا اثرياء.» وتابع قائلاً:«اعلم انك لا تعير الناحية المادية اهتمامك، يا الياس، ولكن لا أحد غيرك حول هذه الطاولة يملك حسابك في المصرف. بالإضافة الى ذلك، كلما كانت الدعاية للفيلم ولاسطوانته جيدة، ازداد مبيع اشرطة التسجيل وازداد استماع الناس لموسيقاك وهذا كل ما يهمك، أليس كذلك؟»

أذعن الياس لفكرة دافيد بهزة مترددة من كتفه وقال:«وما هو شأني انا ومادلين في ان نصبح

نجمين؟ فنحن بصدد تسجيل الاغنية للفيلم وليس الظهور فيه.»

ابتسم دافيد ابتسامة النصر قائلاً:«ربما لا، لكنما ستمثلان. لقد أخبرت المنتج عن فتاتي هذه. فهو يريدكما ان تظهرا على غلاف الألبوم. ألم تفقها بعد، ما اقول؟ وسيكون للصحافة اجتماع في الهواء الطلق. فالفن يحاكي الحياة الى آخر المعزوفة. وعندما ينتهي كل هذا ستصبحان الثنائي العاطفي الأكثر تشويقاً منذ...» توقف ورمق وجه مادلين الخالي من أي ردة فعل، ثم قال متابعاً:«ما الخطب، يا فتاتي.»

جلست ساكنة تنظر الى وجه الياس وسألته بنبرة خفيفة:«ماذا تعني بعبارة الفن يحاكي الحياة؟»

هز كتفيه، ثم ابتسم بارتباك قائلاً:«لم اعن انها كانت، بالطبع، فقط كل شخص سوف يعتقد انها كانت.» استمر في ابتسامته تلك الى ان انتبه الى عدم إدراكها لما كان يتفوه به فقال:«الفيلم، يا مادلين. الحبكة. مؤلف موسيقى مزاجي في قصة حب عاصفة مع عازفته...»

استوقفته نظرتها فقال لها:«ألم تعرفي، بعد ما هو محتوى الفيلم؟»

هزت مادلين برأسها وقد خدرتها هذه المصادفة الخاطئة والمحرمة. فهذا ليس بالفن يحاكي الحياة،

انما الفن الذي يسخر من خيالاتها ونزواتها الكامنة في أغوار نفسها. وهمست بسرعة قائلة:«لا استطيع ذلك.» ورأت الياس، من طرف عينها وهو يهز رأسه وينظر من خلال النافذة.

تابع دافيد حديثه في محاولة لإقناعها:«لا تكوني سخيفة، انها مجرد صورة، ولا ننسى انها ستدر عليك كثيراً من المال. فصورة دعائية بارعة كهذه ستفتح المجال لأرباح هائلة من الاسطوانات.»

اخذت نفساً عميقاً وحاولت ان تبتسم إلا انها اخفقت. فلم يكن هناك من طريقة لإفهام دافيد من دون ان تصرخ بالحقيقة عالياً. كيف سيفهم ان الشيء الوحيد الذي كانت تريده في حياتها هذه، هو ان يقع الياس، في حبها؟ وأن مجرد مشاهدتها الياس وهو يدّعي أنه يحبها أمام الكاميرا، مع علمها بأنها خدعة، كان أكثر مما تستطيع تحمله؟

نظرت الى يديها وهما ترتعشان بتوتر فوق حضنها وحاولت ان تستجمع قواها.

عندما نظرت أمامها مجدداً، كانت أكثر رباطة جأش، فيما كانت ابتسامتها باردة. وقالت:«إذا كان هذا من أجل مصلحة العمل فعلاً، يا دافيد، لأن اظهر على الغلاف، يمكنك ان تستخدم أحداً غيري... يكون أكثر ملاءمة. عارضة أزياء، ربما.»

هز دافيد رأسه وقال:«لا، فالمؤلف الحقيقي والعازفة

الحقيقية... هما اللذان سيكونان وراء نجاح هذا الشيء وتسويقه. بالإضافة الى ذلك فقد حضرنا جلسة التصوير وقد وعدت المنتج بأنكما وافقتما على الاشتراك. فأنا من باعه الفكرة، يا فتاتي.»

شعرت مادلين بأن احشاءها تغادر جسدها ولن يبقى في داخلها شيء. وسوف تصبح مثل الصدفة الفارغة. قالت بحدة:«ما كان يجب ان تفعل ذلك.»

هز الياس برأسه وهو ينظر إليها، فلم تستطع الا ان تشحب تحت تأثير نظراته الخضراء الباردة. وعندما بحثت عن الأمان والراحة في وجهه لم تعثر إلا على قلة الصبر ومسحة من الغضب.

رد دافيد قائلاً:«انها مجرد صورة يا مادلين. فهي لا تعني شيئاً... فلا يتوجب عليكما ان تعجبا ببعضكما بعضاً» تردد قليلاً وعيناه تتحولان من واحد الى آخر.

قاطعه الياس فجأة قائلاً بنبرة شبيهة باصطدام الجزء الضارب من المعدن بالفولاذ البارد:«انها محقة. يمكننا استخدام عارضة. فلن يفقه الجمهور الفرق.»

هزت مادلين رأسها وقالت بسرعة:«وجهي ليس ملائماً للتصوير، يمكنك ان تستخدم احداً غيري ممن يستوفون الشروط.» وأصبحت نظرتها اكثر حدة ونظرت الى الياس وهي تقول:«بيكي مثلاً.»

حملق الياس بها، من دون ان ينبس بكلمة، فيما

استعجل دافيد بالكلام مقاطعاً:«بيكي؟ انك تمزحين.»

سألته مادلين:«وهل تعرفها؟»

«بالطبع اعرف عنها، فالياس يتكلم عنها معظم الوقت...» أجفلت مادلين قليلاً لهذه العبارة، فيما تابع دافيد مخاطباً:«... لكننا لم نلتق بعد ولكن لم يخطر على بالي قط ان استخدمها لعمل كهذا...»

قاطعته مادلين وهي تحاول إخفاء ألمها وقالت:«ولما لا؟ فهي ستكون رائعة. انها واحدة من أجمل النساء اللواتي التقيتهن في حياتي. سيفرح المنتج لدى وضع صورتها على غلاف الالبوم، وإني واثقة من انها ستفعل ذلك بملء خاطرها.»

شعرت بنظرة الياس الباردة. وعندما نظرت إليه هز كتفيه. وقال موجهاً حديثه الى دافيد:«ربما ستوافق على القيام بذلك. وماذا يهم من يحتل الغلاف، طالما ان الجمهور قد قبل بالفكرة.»

تجهم وجه دافيد، ولكنه، بعد تقييمه لمدى التوتر بين الياس ومادلين، تنهد مستسلماً وقال:«حسناً، إذا كنتما ترتئيان اخذها بعين الاعتبار، فسنفعل ذلك.»

وهز كتفيه، كأن القرار غير منطقي.

فجأة وقف الياس قائلاً:«هيا بنا، سأتبعك حتى وصولنا الى القرية. ثم نتوقف عند بيكي حيث يمكنك الاجتماع بها بنفسك.»

وقف دافيد وعيناه الداكنتان تلمعان في فوضى، قال

وهو يفرك يديه في محاولة ظاهرة، مليئة بنوايا سيئة.
قال الياس:«لا تفكر فيها ابداً هكذا، يا دافيد.»
فيما كانت عيناه تلتمعان بدفاع ظاهر. وتابع:«ابعد بيكي بعيداً عن هذه الاشياء.»
رفع دافيد احد حاجبيه وكأنه قد تعرض لهجوم وقال:«اعلم ذلك. لطالما كنت أعلم ذلك.»
اغمضت مادلين عينيها وتحولت بهما بعيداً. فلم يجب ان تتألم كثيراً لدى سماعها الياس يقول بصوت عالٍ ما كانت تعلمه منذ فترة طويلة، إلا انها تألمت نوعاً ما.
كان دافيد واقفاً بقربها وهو يبتسم لها ابتسامة غامضة. مد يده وأمسك ذقنها بأصابعه بلطف وقال:«اتصلي بي، يا فتاتي، في أي وقت.» وتحولت نظراته الى الياس قائلاً:«لا تمانع في ان تتصل بي مادلين؟»
نظر الياس إليها نظرة باردة وأجاب:«يمكنها ان تفعل ما يحلو لها. لنخرج من هنا.»
بقيت مادلين جالسة مكانها وهي ساكنة بعد انصرافهما بسيارتيهما. فكرت بحزن، لو كان لي اصدقاء لكنت اتصلت بهم الآن ولكنّا تبادلنا اطراف الحديث وضحكنا وربما بكينا قليلاً، ثم لكنت شعرت بتحسن.

الفصل الحادي عشر

صرفت مادلين الأسبوع التالي وهي تحاول ان تنساب مجدداً الى داخل عالمها الخاص الذي كانٍ ملاذها قبل ان يدخل الياس حياتها. فقد كان مكاناً آمناً ومريحاً ولم تكن تسمح لأحد بأن يعرف ما في داخله، والحقيقة انها كانت، وعلى مر السنين، قد تعلمت ان تعمل جيداً فيه، وهي تشعر بالأمان خلف جدران اللامبالاة المنيعة إلا ان الرجوع الى داخل عالمها الخاص، كان أصعب مما تصورت.
انا مجرد موظفة، وبالتحديد عازفة بيانو مأجورة تعمل عند الياس، هذا ما كانت تقوله لنفسها باستمرار، لكن وجودها معه في الغرفة نفسها كان شيئاً في غاية الإيلام. وعلمها بأنه لن يشعر الشعور نفسه تجاهها، لم يخمد بريق عينيه او يقلل من تأثير حضوره. ولم تستطع منع قلبها من التحليق في سعادة عارمة، في كل مرة كان يدخل فيها الغرفة وهو مقطب الحاجبين، مشدود الفك وهو يكظم غيظه الصامت اللامقروء، وهكذا شأنه منذ ان احبطت مادلين فكرة ظهورها على غلاف الاسطوانة.
نسيان العالم اجمع كان اسهل من ان تنسى الياس.
كانت بيكي وعلى مدى أيام الأسبوع الفائت، قد

تحولت الى ظلال شبح صامت، حاضر دائماً عند نهوضها من نومها ويغيب مع حلول المساء. كانت بيكي قد اتخذت موقفاً اكثر عدائية إزاءها، تماماً مثل الياس. غير ان مادلين لم تكن لتعير موقفها أي أهمية. ان موقف بيكي كان بالنسبة لها أشبه بطنين ذبابة غاضبة سرعان ما كانت تتخلص منها.

حلول الربيع لم يهز أوتار مشاعرها إلا قليلاً. ولم تلبث تلك السعادة التي كانت تجدها في حديقة الورد ان غادرتها. إلا أنها ظلت تعتني بحديقتها هذه وترعى ورودها كل صباح، فيما كان الياس عاكفاً على عمله في الاستديو، ولم تعد مادلين تشعر بالفرح وهي تقع على نبتة تهفو الى النمو بين يديها. وحل مكان هذا الشعور إحساس بأن عملها هذا ليس إلا لغرض منفعي، وكأن إعادة الحديقة الى رونقها عمل ممل، خال من الفرح ولكنها وظيفة كان عليها ان تضطلع بها لسبب لم تكن تدركه او تتذكره.

اما الشيء الوحيد الذي كان يهز اوتار قلبها، ويهدد باستمرار بتحطيم الحواجز الباردة التي كانت تقيمها حولها، كان النمط الموسيقي الجديد الذي كان الياس يؤلفه. انها موسيقاه من دون شك... واضحة وبراقة وحادة بشكل مذهل... لكن، نوعاً ما لم تكن تستطيع تحديد ذلك بدقة، لأنه يختلف اختلافاً شاسعاً عن كل ما كتبه في الماضي. وللمرة

الأولى لم تشعر بأن موسيقاه تتكلم معها مباشرة وأنها هي الوحيدة التي تستطيع ان تشعر بلمسات روحه المعذبة وترجمتها الى العالم. ما زال قلبها يرتفع من مكانه فيما كانت تعزف موسيقاه، غير ان هذه الموسيقى قد باتت موجهة لجمهور اكبر، جمهور كبير تضيع في تعداده.

ادركت مادلين نهار يوم الاربعاء ما لم يدركه الياس بعد... ان هذه الموسيقى الجديدة ليست لهما وحدهما، وان صوت تلك الموسيقى ملك للجميع لأنها تعكس تموجات الفرح وغصات الحزن لكل من أحب وتاق الى الوصال وفقد حبيبه. كانت تلك الموسيقى من النوع الذي يمكن عزفها أمام آلاف الجماهير فتهز كيانهم، كل واحد بمفرده، لأنها كانت اغنية التجربة الانسانية المشتركة بين جميع البشر.

في صباح الجمعة، جلست مادلين امام مرآتها في غرفتها الصغيرة، التي باتت تشعر بأنها صارت حقاً غرفتها الخاصة، وراحت تحدق في انعكاس صورتها في المرآة وهي غارقة في تفكيرها. لقد تغيرت تلك الصورة قليلاً في هذا الوقت القصير الذي أمضته في مقرها الجديد. وأصبح جسمها يتمتع بقوة جديدة وقد نهل من الهواء العليل واستقوت عضلاته من جراء التمارين. وبدت هالة من العافية تحيط، بديلاً عما كان ينتابها من شحوب وتوعك.

اسبغت الشمس على بشرتها لوناً جديداً وسرقت اللون من شعرها، في إظهار جديد للتوازن الذي تحافظ الطبيعة عليه. أما عيناها فلم يتغير لونهما الرمادي،إلا انهما كانتا خاليتين من الأحلام.

سرحت شعرها بتأنٍ حتى صار أشبه بموجةٍ لطيفة فوق كتفيها، وارتدتْ على الفور فستاناً قطنياً زهري اللون مفتوح عند الرقبة والكتفين. فكرت انه يشبه ما كانت ترتديه نساء المزارعين او ما يرتدينه نساء نيويورك في نزهات الأحد في السنترال بارك. وهو عبارة عن زي مناسب لأعمال البستنة، غير انها لم تكن تنوي العمل في الحديقة في ذلك اليوم.

بعد تنهدات عدة، وضعت فرشاة الشعر على الطاولة بتانٍ ظاهر ونزلت الى الطابق السفلي.

رمقتْها بيكي بنظرة اشمئزاز ظاهر وهي في المطبخ تحرك شيئاً ما، موضوعاً فوق الموقد. وقالت بامتعاض وهي تشير الى فستانها الزهري:«لا يليق هذا الزي لأعمال البستنة.»

ابتسمت مادلين ابتسامة خفيفة ونظرت الى بيكي، وكانت المرة الأولى التي تراها فيها هذا الاسبوع. ولا غرو ان يكون الياس قد أعجب بها. فلم يكن بنطالها الشاحب اللون وقميصها المصنوع من القماش القطني المتين يقللان من عافيتها وجمال جسدها، وبدت عيناها السوداوان من دون مكياج،

تجيشان وتموران بقوة غريبة. وشعرها مردوداً الى الوراء، ومربوط. تمتمت قائلة:«ستبدوان رائعين انت والياس على غلاف الاسطوانة.»

التمعت عينا بيكي بالتماعة غضب وقالت بصوت مقصود به إثارة الشك:«لقد قمت بترتيب كل هذا، على أحسن ما يرام، أليس كذلك؟ ما كان ليكلفك أي شيء لو انت تظهرين على الغلاف، إلا انك لم تزعجي نفسك للقيام بذلك.»

ارخت مادلين فكها ورفَت أهدابها بطريقة حمقاء وهي تتساءل ما الذي جعلها تغضب، بدل ان تكون فرصة وقوفها مع الرجل الذي تحب، لأخذ صورة سوف تكون محط أنظار العالم، قد افتنتها. قالت وهي غير مصدقة:«كنت اعتقد انك ستفرحين لذلك، يا بيكي.»

ردت بيكي قائلة:«إني سعيدة لذلك، وسأفعل أي شيء من أجل الياس.»

قالت مادلين وقد تجهمت أساريرها قليلاً:«حسناً إذن، لن يكون هناك فرق كبير في من سيقف معه طالما ان الجمهور سيظن بأنك عازفته، ولن يؤثر ذلك على نوع الغلاف او رقم المبيعات...»

اتت ضحكة مخيفة. وأجابت ببرودة هذه المرة:«لا، لا اعتقد أنه سيكون هناك فرق كبير.» وانتشلت الملعقة من أعلى الموقد وراحت تحرك بغضب ما كان داخل

القدر. ثم قالت:«لا تنسي انك ستذهبين غداً الى جلسة التصوير. فقد قال دافيد ان المنتج يريد سماع أغنية اللحن الرئيسي وعليك ان تعزفيها.»

أحست مادلين بشيء أشبه بالغثيان وهمست وقد فارقتها احاسيسها:«لم يقل لي أحد بأن علي ان أذهب.»

رمقتها بيكي بنظرة وقد غادرت وجهها علامات الغضب وهي تحدق في وجه مادلين الحزين ثم قالت:«لا تقولي لي بأنك مضطربة لعزفك في الغد أمام المنتج؟»

ابتسمت مادلين ابتسامة خاوية وقالت:«لا، بالطبع لا.» ثم جالت بنظرها حول الغرفة بجمود ظاهر وهي تخاطب نفسها قائلة بأنها ستعالج أمر الغد عندما يأتي الغد. موسيقى الياس في غرفة محتشدة بالناس... وهي تفتح روحها لمن يريد ان يسمع...

وبعد فترة من الوقت اغمضت عينيها ورفعت يدها لتضغط بأصبعيها في ما بين حاجبيها وكأنها تدفع بأفكارها الى الوراء حتى لا تجهر بمضمونها. وسكن صوتها وهي تنظر الى بيكي مجدداً وتقول:«اعتقد بأنني سأقود السيارة الى القرية اليوم، هل تظنين بأن الياس سيدعني استعملها؟»

هزت بيكي كتفها قائلة:«استطيع ان احضر لك ما تريدينه من القرية، وأجلبه لك نهار الاثنين، فماذا تبغين؟»

نظرت مادلين الى الأرض وقد عضت على شفتها ثم قالت:«في الواقع... كنت أفكر بشراء بعض الطلاء للمنزل...»

راحت الملعقة التي كانت بيكي ممسكة بها تطقطق على القدر ثم استدارت في حركة بطيئة وهي تنظر الى مادلين قائلة:«هل تريدين طلاء البيت؟»

ترددت مادلين ثم اومأت برأسها قائلة:«اريد طلاء المظلات وربما محيط النوافذ...»

ضاقت حدقتا بيكي ثم قالت:«لماذا تريدين فعل هذا؟»

نظرت مادلين بعيداً وهي تهمس في سرها لماذا، بالفعل لماذا؟ فكيف ينبغي عليها ان تفسر شيئاً كهذا لامرأة مثل بيكي وهي التي تملك منزلاً، مكاناً تأوي إليه؟

لمرة واحدة في عمر الزمن، كانت مادلين تريد ان تترك بصماتها على مكان ملك قلبها، قبل ان تكره على مغادرته، وتغيره كما فعلت بالأمكنة الأخرى، وان تترك اثراً منها، يشير الى ان مادلين شمبرز كانت هنا، وأنها احدثت تغييراً. اجابت قائلة:«ان البيت يحتاج لذلك.» وهي تعلم ان بيكي لن تفقه ابدا السبب الرئيسي الكامن وراء ذلك. وتابعت:«لقد أصبح معظم الخشب مقشوراً، وسيغزوه التلف قريباً إذا لم نبد اهتماماً بحمايته من الطقس.»

«وما همك مما سيصيب المنزل؟»
ارتعش احد حاجبيها قليلاً وأجابت:«إنه لمنزل جميل.»
وقد شعرت بأنه يترتب عليها ان تقوم بتجديد المنزل، لأنها إذا لم تفعل ذلك فلن يقوم احد به.
ردت بيكي بغضب وهي تدير ظهرها نحو الموقد:«حسناً، من الافضل ان تسألي الياس قبل ان تقومي بأي عمل.»
قالت مادلين وهي تعبر ارض المطبخ باتجاه الباب الخلفي وقد جلبت معها فنجاناً من القهوة:«سأفعل ذلك.»
بدت حديقة الورد وكأنها تعنّفها على هجرانها لها فيما هي تمشي بسرعة باتجاه الاستديو. وملأت خياشيمها رائحة الأرض المقلوبة حديثاً، ولاحقتها تلك الرائحة الذكية طول الطريق وهي تعبر الممر والمرج الكبير. سوف أفتقد ذلك، فكرت وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة حزينة. حين يقع المقدر وأغادر هذا المكان سأفتقد الكثير من الاشياء وفي مقدمتها رائحة الأرض الذكية هذه.
ترددت وهي تقف قرب باب الاستديو الثقيل أخذت نفساً عميقاً ثم دفعته الى الوراء فدار بصمت على مصراعيه.
لم يشعر الياس بقدومها. فقد كان مستغرقاً في احد الحانه وهو يجمع نغماته على لوحة المفاتيح

بيد واحدة. وكانت يده الأخرى ممسكة بذقنه ومرفقه مستند الى رف البيانو.
لم تلتقه ابداً على هذا النحو من الاستغراق الفكري قبلاً:ولم تره قط وهو غافل عنها، لا يدرك انها تنظر إليه. شعرت بشبه موجة من الحنان غير المتوقع، يغمرها فجأة امام هذا المنظر.
كانت خصلات شعره الصبيانية السوداء والمتشابكة تتدلى فوق جبينه ومؤخرة عنقه. ولشدة ما ادهشها بابتسامته الكئيبة وهو يكبس على لوحة المفاتيح في دندنة لأحد الألحان، الذي تبينت أنه يشبه لحن تشوبستكس.
خالت مادلين ان هذه اللحظة سوف تبقى عالقة في ذهنها حتى آخر أيامها وهي تنظر إليه في وضعه هذا.
قالت بهدوء:«اظن انك عزفت هذه المقطوعة قبل الآن.»
أدار وجهه نحوها لدى سماعه صوتها ورأت في الحال ان القناع الذي غلّف وجه الياس شيبرد لعدة أسابيع أخذ يزول ليحل محله قناع جديد هي بصدد مشاهدته للمرة الأولى. فقد كانت عيناه في حيرة عند تفحصه لفستانها الزهري، وخالت انها تعاني الاضطراب عينه الذي كان ينتابه ايضاً.
قال:«لم أرك قط في زيك هذا.»

ردت وهي تنظر الى ردائه الابيض القصير مبتسمة:«لم أرك قط في لباسك هذا.»

ابتسم لها ابتسامة جعلته يبدو صبيانياً من جديد. نظر الى لوحة المفاتيح وهز رأسه بارتباك بسيط وقال:«لقد خرجت لتوي من الحمام، ولسبب ما لم استطع ان احرر هذه الأغنية السخيفة من رأسي هذا الصباح. وكأني بها إحدى اغنيات الاولاد القصيرة والسهلة في مضمونها..... اتذكرينها؟» وراح يضغط بلطف على المفاتيح في حركة مألوفة.

تعرف كيف اجتازت الحجرة لتجلس قربه على مقعد البيانو بعد تردد لحظة، وضعت يديها على لوحة المفاتيح الغليظة. وكل ما كانت تعلمه انها شعرت فجأة بأنهما جنباً الى جنب، وهما يبتسمان ابتسامة عريضة للوحة المفاتيح فيما تعالى من البيانو لحن مضاف على سبيل المصاحبة وكان ذلك اشبه بالسمفونية المختصرة.

اخيراً، وكأن النهاية كانت مدبرة بتأن، فقد اصدرا نغمة أخيرة ثم راحا يبتسمان فوق لوحة المفاتيح وهما يشخصان الى بعضهما البعض لفترة تجاوزت حدود المعقول.

حولت مادلين نظرها عنه وقد شعرت بإحباط، وعبست وهي تنظر الى الأيدي الاربع المرتاحة فوق المفاتيح. وبدا الصمت مربكاً. ثم أصبح خلال ثوان غير محتمل.

قالت فجأة من دون تفكير:«اريد ان أدهن مظلات النوافذ.»

اهتزت يداه على المفاتيح وقال متعجباً:«ماذا؟»

ضغطت مادلين على شفتيها وقد احمر وجهها. وراحت تتراجع من دون ان تتحكم بصوتها وقالت:«المظلات، اريد ان اطلي المظلات لأنها متشظية ومقشورة في عدة اماكن، وسيتعرض الخشب للتلف إذا لم يتول أحد الاهتمام به و...»

«مادي؟»

اطبقت فمها وأغمضت عينيها فجأة وأخذت نفساً عميقاً ثم قالت:«ماذا تريد؟» ولم تستطع ان تتحول بنظرها إليه.

«لم آت بك الى هنا لتجددي المنزل. لا أريد طلاء هذه المظلات. دعيها تتعفن وتهترىء.»

تطايرت خصلات شعرها وهي تدير برأسها لتواجهه وقد جحظت عيناها الشاحبتان وشعرت بإحباط شديد. قالت وهي تسيطر على صوتها لإبقائه ثابتاً:«ما الخطب بينك وبين هذا المنزل؟»

اجابها ببساطة:«إني أكره هذا المنزل.»

عضت مادلين على شفتها وقطبت جبينها وقالت:«إنه لضرب من الجنون في ان تكره مكاناً.» ترددت قليلاً ثم اضافت بتوتر:«فأنت لا تدرك كم انت محظوظ لكونك تملك منزلاً كهذا، لو لم تملك منزلاً قط، لو لم

يكن لك منزل دائم، لكنت ادركت كم انت محظوظاً...»
توقفت فجأة بعد ان رأت موجة براقة من الفضول وعدم التصديق.
سألها بسرعة:«ألم يكن لديك منزل؟» بينما راحت يداه تمتدان إليها.
حولت يديها الى حضنها وحملقت فيهما وهي تعض على شفتها بغضب وغمغمت قائلة:«لقد كان عندي العديد من المنازل.»
«هل كانت اسرتك تتنقل كثيراً؟»
هزت برأسها عابسة وهي ترفض ان تنظر إليه وقالت:«لم يكن لدي عائلة، وقد قضيت طفولتي في منازل الرعاية... في الكثير منها.» وشرعت تنصت الى صوت تنهده، وتلا ذلك صمت مطبق.
رفعت اخيراً عينيها بارتباك فرأته يحدق فيها. ثم يقول بهدوء:«إطلي المظلات، وكل المنزل إذا اردت.»

الفصل الثاني عشرة

استغرقت مادلين في تفكيرها فيما كانت تطوف شوارع برايتون سكوير بحثاً عن طلاء لدهن منزل الياس. وراحت تخاطب نفسها قائلة ان ربات المنازل يقمن بأعمال مشابهة لهذه. وكانت هذه الفكرة، على اقترابها من حدود الخيال، تنير قلبها. توقفت لتمعن النظر الى واجهات المتاجر وابتسمت وهي تومىء برأسها لكل من كانت تلتقيه، وشعرت لفترة من الوقت على الأقل، أنها باتت جزءاً من المدينة، وأن المدينة بدورها قد باتت جزءاً منها. في تلك الأمسية تحولت مادلين شمبرز، تلك المرأة الكئيبة والمستوحشة... التي كانت تمقت النظرات الجانبية التي كان يرمقها بها المارة الغرباء والمتعجبون ابداً من مظهرها الخارجي الشاحب... وحلت مكانها صورتها في الثوب الزهري اللماع الذي اقترن بلون وجنتيها. امرأة، فكرت مادلين انها قد تعجب بها ولم يعد هناك من أثر لهذه الإنسانة الشاحبة، المكفهرة اللون، في انعكاس صورتها على زجاج واجهات المحلات ونوافذها.
عندما وصلت الى روزوود كانت بيكي قد انصرفت الى منزلها والياس منعزلاً في الاستديو. وأصبح

المنزل وما حولها ملكها لها وحدها. استبدلت فستانها ببنطال جينز رث وقميص قديم ونزلت الى الطابق السفلي لتبدأ بالطلي.

احاطت المظلات، بلونها الأخضر الشاحب بالنوافذ الأمامية فجعلتها تبدو صغيرة راقدة. وقررت مادلين، من دون سابق تصميم، ان تختار اللون الابيض اللماع لتغطي به اللون الاخضر. وراحت تحادث المنزل على نحو سخيف وصبياني وهي تبلل فرشاتها وتبدأ بدهن إحدى هذه المظلات. قالت وهي ممسكة بالفرشاة:«سيجعلك هذا تنتفض من سباتك، سوف ترى، فلن تبدو خالياً او مهجوراً بعد اليوم. ستبدو مختلفاً، ستؤول الى تبدل، وكل هذا بفضلي أنا.» وراحت تعمل باجتهاد، وتأن ومحبة وهي تحول المنزل، كما حولت قبله حديقة الورد.

عندما انتهت من طلاء المظلات كان لون ذراعيها ووجها قد امتلأ ببقع بيضاء، وخصلات من شعرها متدلية فوق جبينها. والشمس قد زحفت الى منزلها المسائي في الجهة الغربية من الأفق.

تراجعت مادلين قليلاً الى الوراء وهي ممسكة بفرشاتها المبللة، ومالت برأسها وهي تنظر الى المنزل في محاولة لتقييم عملها، وابتسمت لما قامت به يداها.

كانت اشعة الشمس تنير على النوافذ التي بدت

ضخمة وهي تمد اذرعها البيضاء وكأنها ترحب بالعالم. وبدت حجارة القرميد التي كانت شاحبة فيما مضى دافئة ومتوهجة بلونها الوردي وكأن للمنزل وجنتين، وقد احمرتا، وهو مرتبك قليلا بجديده.

أطرت على ما قامت به واستحسنت عملها ثم تمطت في محاولة لتخفيف الألم المبرح في عضلات كتفيها، فيما راحت عيناها تجولان بسعادة فوق المنزل. ولم يزعجها إلا هذا التشابك في الشجيرات المهملة التي كانت تحتضن شرفة المنزل والممر المؤدي الى المنزل في فوضى شديدة.

على الفور، وضعت دلو الطلاء جانباً واندفعت الى غابة الأوراق. وعندما فرغت من عملها كانت يداها قد اقترنتا بلون أسود بفعل التراب العالق عليها فيما راحت عضلات ظهرها وذراعيها تصرخ مستغيثة طالبة النجدة، إلا ان نظرة الى واجهة المنزل أنستها ألمها وعذابها. كانت الشجيرات الغنية بعطرها تزين مدخل المنزل، مع مجموعات من زنابق الوادي العطرة حيث نُشر فوق ترابها طبقة من النشارة والتبن لوقاية جذور النباتات الغضة.

تراجعت مادلين قليلا، مرة اخرى، وهي تتنهد، وقد وضعت يدها على موضع الألم خلف ظهرها، ثم راحت تمسح يديها الملطختين بالتراب على جانبي سروالها.

الآن كل شيء أصبح رائعاً، فكرت مادلين ثم جفلت فيما كان الياس يتكلم من خلفها فقال:«يا للهول يا مادي، في البدء كانت موسيقاي، ثم حديقة الورد والآن هذا... يبدو ان كل ما تلمسينه يزهو ويزيد من رونقه.»

احست مادلين بقلبها يثب لبرهة ثم يعود الى مكانه في صدرها. وفكرت بأسى، ما خلا انت يا الياس، فلن استطيع إعادت الرونق اليك. فقط بيكي تستطيع ذلك.

تمتمت وهي تنظر نظرة اخرى الى المنزل:«إني احب هذا المكان.»

ضحك ضحكة حزينة خافتة وقال:«انت ووالدتي. كانت والدتي تعتقد ان اجمل مكان بالعالم هي هذه القطعة الصغيرة من الأرض.» نظر إليها فجأة، وقد اعتراه تجهم بسيط وقال:«ما الذي يجعلك تحبين هذا المنزل حباً جماً يا مادي؟»

نظرت مادلين الى تلك الأرض التي كانت تطأها الآن وشفتاها مطبقتان وقالت:«عندما كنت فتاة صغيرة، كنت أحلم في ان يكون لي منزل... منزل لا اضطر الى مغادرته.»

نظرت مجدداً الى المنزل وتنهدت بعمق ثم اردفت:«لقد كان يشبه هذا المنزل في شكله.»

التزم الياس الصمت للحظة إلا انها كانت تشعر

بثقل نظراته عليها. وقال:«قلت إنك تنتمين الى عائلة رعاية...»

أجابت وهي تصحح كلماته بحركة آلية:«لقد قلت إنه كان لدي الكثير منها. فأنا لم امكث في مكان واحد لفترة طويلة من الوقت.»

استغرق في صمته، وكأنه يتخيل تلك الطفولة حيث لا استقرار فيها لا في الاشخاص ولا في المكان.

جعلها الصمت تشعر بالتوتر. هذا يعني أنه يفكر في ما قالت، من المحتمل انه يشفق عليها، وهي لم ترد ذلك.

تحولت نحوه فجأة وقد تهللت أساريرها بابتسامة عريضة مشرقة وقالت:«لقد قلت لك لماذا احببت هذا المنزل، ومن العدل ان تقول لي لماذا تكرهه.»

جمدت اساريره، وأخذت خضرة عينيه تغرق في اسوداد بسيط فيما كانت هي تراقب كل ذلك. اما ابتسامته فكانت واهنة، وقد اعتراها قليل من الألم وقال:«لقد كنت سعيداً هنا وأنا طفلٍ أعيش مع والدتي، وخلت أني سوف أبقى سعيداً هنا، وكأن السعادة كانت مكاناً وليس حالة.»

توقف لبرهة وقد استدق فكه فيما ظنت مادلين ان حدقتيه قد تحولتا الى حجرين أخضرين ثم تابع:«وهكذا، احضرت زوجتي لتعيش هنا بعد زواجنا. فكرهت المكان وكرهت الانعزال والانفراد

فيه وخلصت اخيراً الى كرهي لإحضارها الى هنا. ثم وجدتها مع شخص كنت أحسبه صديقا... في الغرفة نفسها التي تنامين فيها. وكان ذلك آخر يوم اطأ فيه أرض هذا المنزل... الى ان جئت.»

احست مادلين بألم وكأنه يمزق أحشائها، وكان هذا الشعور بالألم مألوفاً لديها. فقد كانت تعلم علم اليقين ما معنى ان يعطي الانسان قلبه لشخص ما ثم يكابد من جراء رفض الشخص الآخر. وقد شعرت بذلك عشرات المرات، في كل مرة كانت تغادر فيها منزلاً من منازل الرعاية.

راحت تتأمل في خطوط صورته الجانبية القاسية وفي وضع فكه الدفاعي ورأت في وجهه صورة الطفل الذي عاند وكافح كثيراً ليكون شجاعاً وهو يدعي بأن النبذ لا يؤلم ولا يقهر.

كانت الحاجة الى الراحة ملحة وكأنها صارت ألماً يعمل في جسمها. فقد كانت ترغب في ان تدفع يديها إليه وتضغط بهما على وجنتيه لتلطف من ذاك الألم الذي شدهما الى بعضهما في رابطة وثيقة منذ اللحظة الأولى التي سمعت فيها وقع صدى يأسها في موسيقاه. وكانت تريد ان تقترب منه، إلا ان المسافة التي كانت تفصل بينها وبين أي كائن بشري كانت بعيدة. وارتجفت يدها الى جانبها ثم سكنت وتمتمت:«انا آسفة.»

امسك الياس بكتفيها وأدارها برفق حتى صارت في مواجهته، سألها وهو غير مصدق:«آسفة؟ ولما الأسف؟ انظري الى ما فعلت. لقد جعلتني أراه على النحو الذي كان عليه حين كانت والدتي لا تزال على قيد الحياة، حين كان هذا المنزل يعمر بالحب. لقد جعلتني أدرك كم كنت احمق في السماح لذكرى واحدة سيئة ان تحطم سنوات من أجمل ايام عمري في هذا المنزل.» انحنى إلى الأمام ليطبع قبلة على جبينها قائلا لها:«شكرا لك على كل ما فعلته، يا مادي.»

اخفضت رأسها وراحت تحدق في حذائها المبقع وغمغمت وقد اعتراها الارتباك:«كل ما فعلته هو طلاء المظلات.»

راح الياس يحدق بحنان في قمة رأسها المطأطىء. وعندما تكلم اخيراً كان صوته أشبه بالهمس:«ليس لديك فكرة من تكونين، أليس كذلك؟»

رفعت مادلين عينيها بسرعة لتلتقي بعينيه وكادت ان تجفل لما رأته من عمق الإحساس فيهما.

كانت شفتاه ترتجفان قليلاً. ثم اقترب منها رويداً وهو يبتسم لها. ولم يكن ذلك بالشيء المخيف. فهي لم تكن قبلة رجل لامرأة على كل حال بل قبلة ناعمة حنونة لأب، او أخ، او صديق قلبه عامر بالعرفان. وقد كان خلو من الرغبة، على الاطلاق. رفت مادلين

أهدابها بسرعة لتحبس الدموع في عينيها والتي ما تزال تحبسها طيلة حياتها.

سألها بهدوء:«من المفترض ان نكون صديقين، أليس كذلك؟»

اومأت مادلين برأسها غير قادرة على الكلام.

«وهل يستطيع صديقان ان يذهبا الى العشاء سوية؟»

ارتجفت شفتاها مع ابتسامة. أما هو فحدق إليها قائلا:«سنحتفل بالموسيقى وبالمنزل وبالصداقة.»

* * *

استحمت مادلين ثم ارتدت فستانها الأزرق الفاتح وهو ما كان يلبس لمناسبات كهذه ولا تستطيع ان تسمح لنفسها بالتفكير في هذه المناسبة بأكثر من لقاء مع صديق.

سرحت شعرها بلا مبالاة ظاهرة، جعلته يتكسر فوق كتفيها، وراحت تنظر في انعكاس صورتها في المرآة وقد تجهمت أساريرها قليلاً. بدت عيناها مختلفتين، كأن مسحة من اللون الاخضر موجودة خلف اللون الرمادي البارد. خاطبت نفسها قائلة: اذا كانت العيون حقيقة نوافذ الروح فعيناي تشعان بأشياء كثيرة. ثم عبست قليلا لصورتها وتحولت سريعا عن المرآة. توقعت ان ترى الياس في آخر السلم. وعندما لم تجده

هناك توقعت ان تراه في المطبخ، حيث كان يشعر بارتياح لدى الجلوس هناك، ولشد ما ادهشها حين رأته اخيرا وهو ينتظرها في الردهة الصغيرة وهو مرتاح في كرسي هزاز ورجلاه ممدودتان. «ها انت إذا.» نظر إليها وابتسم قائلا:«وهل تركت ورائي طريقا من فتات الخبز؟»

قهقهت عالياً وأجفلت عند سماعها صوت قهقهتها. كم مضى عليها من الوقت وهي لم تستمع لصوت ضحكتها؟

«لم أرك هنا ابداً قبل الآن، هذا كل شيء.»

رمق البيانو الكبير في الزاوية، وعيناه غافلتان للحظة ثم قال:«لقد تلقنت درسي الأول على البيانو في هذه الغرفة بالذات. كنت فظيعا وكانت أمي العازفة الوحيدة في العائلة.»

مشت مادلين الى الجدار حيث عُلقت مجموعة من الصور ونظرت الى واحدة بالتحديد صورة تحمل صورة ولد شقي يضحك ضحكة ماكرة وشعره الأسود يتدلى فوق جبينه.

استدارت وسألته:«هل هذا أنت؟»

اومأ برأسه قائلاً:«الشخص الثاني هو أمي.»

كانت امرأة شابة واقفة وسط حديقة الورد وقد أحاطت بها البراعم. وقال الياس عبر الغرفة:«إنها تشبهك قليلا في هذه الصورة.»

«لا، فهي جميلة.»

«وأنت ايضاً، يا مادلين، ألا تعلمين بذلك؟»

كانت الغرفة غارقة في السكون حتى كادت ان تسمع خفقان قلبها.

تنهد وتنحنح:«إني جائع، وأنت؟»

تحولت إليه وهي تبتسم وراحت تتساءل إذا كان سيأتي اليوم الذي لن تشعر فيه نحوه بأي شيء لدى النظر إليه. فقد كان مرتدياً سروالا داكن اللون، تفصيلته لا غبار عليها، وقميصاً أبيض كان يتمايل عليه مع كل حركة. كان الفرق بين شعره الأسود وبشرته الفاتحة أكثر نفوراً وكأنها نسخت لون بشرتها عنه أكثر مما نقلتها عن الشمس. وقال:«إني جاهز.» اومأت برأسها وهي تمشي لتمسك بيده الممدودة.»

شعرت بالراحة وهي تمشي عبر المنزل متشابكاً الايدي. وعضت على شفتها السفلى فيما هما يخرجان من المنزل باتجاه السيارة. كانت تعلم ماذا يحدث حين تبدو الأشياء رائعة على هذا النحو.

انها سرعان ما تتلاشى.

الفصل الثالث عشر

تناولا، مادلين والياس العشاء في مطعم ايطالي صغير مكتظ بالزبائن وبمنأى عن أعين المارة، في أحد شوارع القرية الخلفية. قال لها الياس ان اسم المطعم ليس وارداً في الدليل إلا ان المسافرين كثيراً ما يعثرون عليه. وأضاف:«اعتقد أنه سيعجبك.»

كما سائر المطاعم الايطالية في المنطقة، فقد كان هذا المطعم بسيطاً في خدمته واحتفائه بالزبائن. فلا شمعدانات موضوعة في قناني. ولا شراشف طاولة حمراء اللون ولا جدران مزخرفة حتى الازعاج ولا ألحان كمان مشدودة. كان داخل المكان مميزاً في بساطته. فالفرش كناية عن طاولات خشبية مع كراسيها موزعة هنا وهناك، أما لونها فكان داكناً والاضواء خافتة.

قادها الياس عبر مجموعة من الساهرين، كانوا يتناولون عشاءهم، الى طاولة شاغرة قرب المطبخ وقال:«المكان هنا أكثر هدوءاً.»

راحت مادلين تتنشق رائحة الثوم والبهارات الطازجة التي تسيل اللعاب وقالت:«إني اتنشق رائحة الطعام.» فلم يكن منه إلا ان كافأها بإحدى ابتساماته النادرة.

لم تمضِ دقائق خمس حتى حضر عمال المطبخ جميعهم... على ما يبدو افراد في العائلة نفسها... الى طاولة الياس للترحيب به، وكأنه ابن او أخ ضل منذ زمن بعيد. ولشدة ما دهشت مادلين حين رأت هذا الرجل الرصين المتحفظ في عواطفه قد صار هدفاً لعواطفهم. وما أثار دهشتها اكثر ان ولعهم الواضح بالزائر، اتسعت دائرته لتشملها هي كونها رفيقته. جلست الى الطاولة بعد ان اصبحا بمفردهما وقد احمرت وجنتاها فيما راح الساهرون يرمقونها بنظراتهم.

قال الياس بارتباك ظاهر وقد لاحظ انزعاجها:«إني آسف لما حصل، فالسكربيلو هم كالعائلة وهم في غاية... الود.»

حاولت مادلين ان تبتسم وهي تتذكر ذلك الرجل الضخم الجثة بضحكته العريضة المشعة وهو يبتسم لها قائلاً:«إني اصادق على كلام الياس. فالعائلة ليست ايطالية، لسوء الحظ، إلا أني اوافق على كلام الياس.»

«انهم رائعون.» تمتمت وهي لا تزال تنعم بهذا الإطراء المستفيض في مضمونه مع أنها لم تكن تدري كيف ترد عليه شاكرة.

ركز الياس عينيه الخضراوين على عينيها بشيء من الدهشة عندما تكلمت بلغة ايطالية متكسرة وهي

تنهي دورة من المصافحات الفرحة الصاخبة من السكربيلو.

قال الياس:«لم اكن ادري انك تتكلمين الايطالية.»

صححت قائلة:«إني اتكلم الايطالية المتعلقة بالأكل، هذا كل شيء.»

احضر جورجيو، ذاك الرجل الضخم والذي حاز على إعجابها بعد اطرائه المفرط لها، إبريقاً من العصير الطبيعي الى الطاولة وقدمه لها باحترام زائد قائلاً:«انها من صنع العائلة، كان يجب ان تعلمني بمجيئك، يا الياس لأظهار في البراد قبل وصولك.»

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو ينظر الى مادلين ثم قدم لها كوباً منه، وقال بنبرة آمرة:«إشربي، فهذا العصير ينعش النفس.»

احمرت وجنتاها بذاك اللون الاحمر القاني. وعرّف الياس عنها قائلاً:«انها عازفتي يا جورجيو، وليست حبيبتي.»

قال جورجيو وهو يبتعد، ساعياً لتلبية رغبات الزبائن الآخرين:«انها مسألة وقت.»

راح الياس ومادلين وبانزعاج متساوٍ يتظاهران بالتحديق بما يحيط بهما، ثم التقت عيونهما وكأنهما طائران مذعوران وقد اندهش الأول لرؤية الثاني. وضع الياس حداً لهذا الارتباك القائم بابتسامة

وتنهيدة لا رجاء منها وقال:«لا سبيل لإصلاحه فهو رومانسي عنيد.»

ابتسمت مادلين وقد ارتخت عضلات كتفها وقالت:«هل هو دائماً هكذا؟»

هز الياس كتفيه قائلاً:«لم أحضر الى هنا قبلاً برفقة امرأة.»

رشفت مادلين من كوبها وهي تتساءل لِمَ لم يحضر هو وبيكي الى هذا المطعم قبلاً؟

عندما راحت تنظر في عينيه مجدداً، كان يبتسم لها بقليل من الحزن، هكذا ظنت. كان ضوء الشمعدان يلمع في عينيه كبقع صفراء من الحرارة تتوسط أحد الانفراجات في غابة خضراء باردة.

«نحن لا نتكلم إلا في الموسيقى. وعندما انصت إليك احياناً وأنت تعزفين مما أضعه من تأليف، أخال انك تعلمين عني أكثر من أي شخص آخر في هذا العالم...»

ارتفع حاجباها فيما تابع الياس قائلاً:«... إلا أني لا اعرف شيئاً عنك، لم أكن اعرف انه لم يكن لديك عائلة حتى هذا الصباح.»

اهتز كتفاها بحركة متوترة وقالت:«ليس هذا بالشيء الذي تذكره بشكل عابر.»

بدت عيناه لينتين قليلاً ومتطفلتين بعض الشيء وقال:«قلت إنه كان عندك الكثير من المنازل...»

«نعم.»

«وهل ما زلت تتصلين بالعائلات هذه؟ هل انت قريبة منهم؟»

اشرقت ابتسامتها على الفور غير انها كانت باردة ومتكلفة، وقالت:«في الواقع، لم أقم ابداً في منزل واحد لمدة طويلة حتى تتسنى لي الفرصة لأن أقيم علاقات حميمية معهم.» بدا الياس مصعوقاً فيما اضافت مادلين مدافعة:«لا تنظر إليّ هكذا. لا تشعر بالأسف عليّ. لدي حياة حلوة الآن.»

قال بلطف ظاهر:«لا اشعر بالأسف لما انت عليه الآن يا مادي. لكنني اشعر بالأسف لطفولتك... لهذه الطفلة التي ما تزال في اعماقك. طفلة تقع في غرام منازل لأنها تخشى ان تقع في غرام اشخاص.»

امسكت مادلين عن التنفس، وأخفضت نظرها، فيما اخذت اهدابها ترف بسرعة، إنه يعلم كثيراً، ورأى الكثير. قالت في سرها. ثم ردت بحدة غاضبة:«انت من يجب ان يتكلم. لقد كنت تكره البيوت للسبب نفسه.»

فاجأها عندما ضحك ضحكة خفيفة ونظرت إليه لتجده يبتسم لها ثانية، ثم قال:«ربما هذه هي مشكلتنا، يا مادي. ربما لأننا قريبان من بعضنا، ونشبه بعضنا في نواح كثيرة.» اسودت عيناه فجأة وخفض بصره وقال:«قولي لي كيف تجري الأمور بينك وبين دافيد؟»

دهشت مادلين لهذا التحول المفاجىء في موضوع المحادثة وهتفت قائلة:«دافيد، لم احدثه منذ ان كان هنا في ذاك الصباح بعد...»

تحول برأسه وهو يكشر قائلاً:«... بعد هذا الصباح الذي تصرفت فيه بغباء؟» أنهى عبارته هذه بغمغمة ظاهرة. ثم تابع قائلا:«إني مندهش من أنك ما زلت تتحدثين إليّ بعد تلك الاشياء السخيفة التي قلتها لك تلك الليلة في غرفة دافيد. فليس عندي عذر لتصرفي هذا، ما عدا ذلك...» عضّ على شفته وقد اختصر جملته قائلاً:«مهما كانت علاقتك مع دافيد، فليس هذا من شأني.»

اجابت:«لست على علاقة مع دافيد.»

حملق بها بصمت لبرهة، وقد جمدت قسمات وجهه وقال بهدوء:«لقد تكلمنا،انا وهو، ونحن في طريقنا الى منزل بيكي. اعتقد انه واقع في غرامك.»

ابتسمت فجأة وبطريقة مثيرة للمشاعر وقالت:«دافيد من النوع الذي يحب جميع الناس. وهذه الاشياء هي كالتنفس بالنسبة إليه.»

أجابها قائلا:«ربما. إلا ان هذا يبدو مختلفاً، حتى أني أكاد أراه.»

اصلحت مادلين من جلستها. ففكرة ان يقع في غرامها شخص ما كانت غريبة عليها وسخيفة، حتى أنها كادت ان ترتبك وهي تسمعها جهاراً وسألته

فيما ارتفع حاجباها:«هل تمانع في ان نتوقف عن هذا الحديث؟»

اجاب وقد بدا صوته بارداً فجأة:«بالطبع، فأنا لم اقصد ان اتدخل.»

مر العشاء بصمت نسبي، والسبب في ذلك ان مجرد ذكر دافيد قد أقام حاجزاً غير مرئي بينهما،والسبب الثاني كان يكمن في جورجيو، كان كثير الحضور إليهما حتى أنه لم يكن لديهما متسع من الوقت ليتكلما مع بعضهما بعضا.

قال جورجيو فيما يغادران:«تعالا مجدداً.» وقبلها على وجنتيها قائلا:«إننا أصبحنا عائلة واحدة الآن.»

في طريق العودة الى روزوود جلست مادلين جانبياً في مقعدها في السيارة كي تستطيع رؤية الياس وهي تحرك عينيها فقط.

إنه على حق، بالطبع. ففي داخلها، ما تزال تلك الفتاة الصغيرة التي تبحث يائسة عن عائلة، وقد أعطاها جورجيو، ولهذه الليلة على الأقل، الوهم بأنه صار لها واحدة. فهذا الشعور بالانتماء كان قد أحاط بها مثل دثار دافىء ومريح وقد أخذ يشعرها بالأمان.

قال لها:«انك تبتسمين.»

شعرت بنظرته قبل ان يعيد نظره الى الطريق المظلمة أمامه وقالت:«اتعتقد ذلك؟»

«نعم. وهل يؤثر الأكل الايطالي فيكِ هكذا؟»
قالت وهي تشعر بابتسامتها تتسع:«فقط عند جورجيو.»
«إذا، فسنذهب إليه مراراً.»
إلا ان مادلين لم تأبه لجوابه هذا إذ كان على غرار ما يقوله الناس في محطات كلامهم وقد كانت تلك الكلمات بالنسبة لها مجرد وعود للمستقبل. وإذا لم يكن قد عنى ما عناه من وراء تلك الكلمات فقد تخيلت انه فعل ذلك فعلاً. وقد ادعت لنفسها اشياء كثيرة مؤخراً... كتخيلها بأن المدينة قد صارت ملكها عندما كانت تشتري الطلاء، وان جورجيو قد عنى ما عناه حين قال انها من العائلة... ولماذا لا تتخيل انها تستطيع ان تحصل على الياس إلى الأبد؟
استدارت في مقعدها وراحت تحملق فيه وقد ارتسمت على شفتيها علامات ابتسامة خفية. لماذا كانت خائفة من ان تفعل ذلك قبل اليوم؟ لماذا تركت كبرياءها تمنعها من تذكر قسمات رجل أحبته، تلك الذكرى التي كانت لتدوم طويلاً الى ما وراء الحدود الضيقة المختصرة لعلاقتهما؟
سألها:«ما الخطب؟»
اجابت وقد انفرجت شفتاها عن ابتسامة:«لا شيء.»
ارخى حاجبيه على شكل محير فوثب قلبها وطوال

رحلة العودة الى روزوود... الى المنزل، على الأقل هذه الليلة...
اخذت مادلين تراقب تنهداته، وحركات أنامله الطويلة على المقود، وكل تلك الظلال التي كانت تمر على صورته الجانبية القاسية والمشدودة. وفكرة السماح لنفسها بأن تقدم على شيء كهذا تكاد تخنقها.
كانهما أتيا على نهاية الموعد الأول، فقد فتح الياس الباب وأشار إليها بالدخول وهو يرتبك على المدخل قائلاً:«هل استطيع ان أدخل لبرهة؟»
قالت بابتسامة سريعة ومشرقة:«بالطبع، فهو منزلك.»
هز برأسه قائلاً:«لا. وعدتك بأنه سيكون منزلك طالما انت باقية فيه.»
ردت بلطف إذ ان ذلك كان جزءاً مما كانت تتخيله:«حسناً، إذن انه منزلنا.»
لم تكد تدخل المنزل حتى بدأت تفرك ذراعيها وهي تواجه برد المساء.
سألها الياس قائلاً:«الجو بارد، أليس كذلك؟»
«قليلاً.»
«انها الرطوبة. يحتاج هذا المنزل بعض الوقت كي يجف بعد المطر.»
استدارت نحوه فجأة وفي عينيها حدس طفولي:«وهل النار تساعد؟»

قوس حاجبيه متعجباً وظهرت على وجهه ابتسامة لطيفة:«لم أجلس مقابل المدفأة منذ سنوات.»

«أما انا فلم أجلس مقابل مدفأة، قط.»

تعلقت عيناه بعينيها ومن دون سابق انذار مد يده ولمس برفق خدها بظهر يده. قال بلطف:«هذه الليلة سوف تجلسين.»

راقبته مادلين بتعجب وصمت، وهي جالسة على الكرسي الهزاز الذي كان يجلس عليه قبل الآن، كان يضع الحطب في المدفأة. وكأنه لم يعد يدرك نظراتها. ضاقت عيناها الرماديتان فيما راحت ألسنة اللهب تلتهم عيدان الحطب وتنير خلفيته. بانت قسمات جسده تحت قميصه وبفعل خداع اللهب المتراقص، بدا جسده يلمع بلون ذهبي تحت القماش الأبيض الناصع. جلست مادلين مصعوقة وهي تتذكر الخطوط المتماوجة لكتفيه اللتين لم يقع عليهما نظرها قبل اليوم. وأمسكت عن التنفس وهي تتساءل لماذا لم تجفل وهي تنظر إليه بوقاحة؟

فاجأها حين وقف فجأة ومسح يديه على بنطاله ثم استدار ليواجهها. وكأنه خيال يوناني وهو واقف في الظلال والنار تتلاعب من حوله، ووجدت انها لا تستطيع تجنب نظراته.

لم تستطع تمييز قسماته فيما النور خلفه. لكن عندما قال:«نريد شيئاً نشربه.»

تنهدت بعمق عندما غادر ووقفت وهي تحاول ان تستعيد هدوءها. وراحت تتحرك وهي تظن ان مجرد سيرها قد يعيدها الى الواقع. ومشت مرتين قرب النار التي كانت تزأر وشعرت بلهيب النار تدغدغ عضلات ساقيها. وقفت فجأة وهي تواجه النار وقد ادهشها ذلك الشعور الذي كان ينتابها. ومن دون وعي لما تفعل جثت على ركبتيها وشعرت بالدفء والنور يغمران وجهها.

بعد وقت شعرت بحضوره فالتفتت لتراه واقفاً عند عتبة الباب يحملق بتعجب صامت ويداه تحملان صينية عليها كوبان وإبريق شاي.

تساءلت في نفسها ان كان عليها ان تقول شيئاً ما. وأخذت تملي نظرها بشعره الاشعث وخطوط جسمه النحيلة القاسية، ولكن منظره جعلها بكماء. كانت عاجزة عن القيام بأي شيء سوى ان تحملق به.

قال وهو شارد وبصوت هادىء:«لقد احضرت الشاي.»

شعرت بنفسها يتوقف فيما كان يتحرك ببطء نحوها وعيناه معلقتان عليها. وشعرت بشيء كبير قادم صوبها لن تستطيع مقاومته إذا سمحت له ان يقترب أكثر. فقد كانت ليلة أمس على أهبة الاستعداد ان تثب على قدميها وتطير، اما الليلة فقد كانت تعيش حلماً. وفي الاحلام لا مستقبل ولا

خوف مما سيحدث، إنما اللحظة التي هي فيها. وقف قربها ونظرت مادلين إليه، وهي متعجبة من تلك الأحاسيس التي تنتابها من كونها امرأة مظللة برجل. كان هناك شعور غريب من ان كل شيء كان سيجد مكانه وكان ذلك ما ينبغي لها ان تفعله.

نظر إليها وانعكاس اللهب الأصفر يلمع في خضرة عينيه ثم جلس على الارض وهو يواجهها ووضع ما يحمله بيده جانباً. امسك يديها بلطف وحنان وأدارها نحوه.

كانت غير واعية ليديه وهما تغادران يديها، وقد حان الوقت لذلك لأن أنامله كانت تفتح طريقها عبر شعرها الفضي وهي ترفعه بعيداً عن عنقها وارتعشت ليديه وهما تلامسان الشعر في أعلى عنقها. أغمضت عينيها وهمست قائلة:«الياس» وكانت هذه العبارة، سؤالا مفاجئاً.

تمتم بصوت أجش قائلاً:«قوليها مرة ثانية، يا مادي. قولي اسمي.»

هزت برأسها من دون ان تنبس بكلمة وقد شعرت فجأة بالخوف فقال لها وهو مدرك لما كانت تشعر به:«لا تفكري به يا مادي. لا تفكري بالغد وما سيحدث، او ما سيجلب لنا الغد. فكري بما سنكون عليه في هذه اللحظة.»

اخذت يديها بيديه وأمسكت بهما برهبة كما كان

قد امسك بيديها في تلك الليلة الأولى. تلك الايدي الجميلة التي كانت تحمل الشعر من عقله الى موسيقاه على لوحة المفاتيح. وهمست بإسمه إذا كان ذلك ما كان يريد سماعه:«الياس.» ورددت مراراً وتكراراً:«الياس، الياس...»

تمتم بإسمها بصوت أجش ويداه ترتجفان على أعلى ذراعيها.

طافت عيناه فوق وجهها تتلمسان وكأنهما تأخذان تمليان النظر منها ولم يحرك ساكناً يتكلم للحظة ولكنه كان يريدها ان ترى ما يمكن ان يكون صدى لكلماته.

همس بإسمها وهو يلامسها فيما قلبها يخفق بعنف وجسمها يرتخي.

الفصل الرابع عشر

استيقظت مادلين وهي تشعر بلمسة لطيفة على خدها صعوداً حتى حاجبيها.
ناداها صوت أشبه بهمس، فانقلبت على جنبها وقطبت حاجبيها وهي تريد ان تغرق مجدداً في ذلك الحلم حيث كانت هي والياس مستلقيين قرب النار.
فتحت عينيها على وسعهما ووجدت نفسها تحدق في رماد الموقد. بدأت تستعيد واقعها رويداً رويداً. وشعرت بالبرد. فأدركت انها نامت من دون غطاء.
رأته من خلال النور الشحيح المنبعث من النافذة. جاثياً على ركبتيه بجانبها وهو لا يزال في ثياب الأمس التي باتت منكمشة ومتغضنة، فيما قميصه كاشفة على صدره.
قال:«انه الصباح، يا مادي.»
راحت تفتش حولها عبثاً عما تغطي به نفسها لتحتمي به من البرد. ولم تكن تحلم قط بأنها ستنهض من النوم على هذا النحو بعد أول ليلة امضياها معاً فقد كان من المفترض ان يحضنها بين يديه وهما يتمتمان بأشياء كان العاشقان يتبادلانها في الصباح.
اصلحت من جلستها وطوقت جسمها بيديها وهي تفرك ذراعيها بشدة وقد بدأ يسري فيهما الدفء.

تناول الياس غطاء عن المقعد المجاور له وأحاط به كتفيها في حركة عادية سريعة لم تكن تحتاج الى مناشدة منها.
ابتسم وهو يربت عليها بلطف تحت ذقنها وكأنها طفل يسعى ذوو أمره الى اخراجه من السرير بشتى وسائل التدليل الخادعة. قال:«علينا ان نسرع يا مادي. علينا ان نغادر في وقت قريب لنصل في الوقت المناسب الى المدينة.»
تحولت عيناها الرماديتان الى لون قاتم. مدت احد انامِلها لتلمس به زاوية فمه. واحمرت غاضبة وهي تتذكر ما الذي حدث في الليلة الماضية. ابتسمت فيما راحت عيناها تطوفان في وجهه وقد بدت ظواهر لحية تتكون حول فكيه فيما كان شعره الأسود يتدلى فوق حاجبيه.
ابعد خصلات شعرها الطويلة الفاتحة عن وجهها، ارتجفت وهو يلمسها بينما انزلق الغطاء عن كتفيها لتستقر على وسطها. امسكت بيده وهي متعجبة من جرأتها واحتضنتها.
همس بصوت أشبه بالفحيح قائلاً:«مادي.» وضاقت حدقتاه وقد اصطبغتا بلون أشد سواداً. وتقلصت عضلات وجهه وبرزت خطوطٌ متغضنة بين حاجبيه.
همس بصوت أجش قائلاً:«علينا ان نسرع.» وارتسمت على ثغره ملامح ابتسامة خفيفة متكلفة.

ثم وقف ونظر إليها قائلاً:«ستأتي بيكي الى هنا في أي لحظة. ولا نريدها ان تفكر فينا بشيء، أليس كذلك؟»

تلاشت ابتسامتها وكأن الارض قد غارت تحتها، فيما بدأت احلام الأمس بالتلاشي وحلت محلها معالم الواقع المرير. ففي الأمس لم يكن هناك موسيقى ولا ماض ولا مستقبل، ولا حتى بيكي، وها قد انتهت تلك الليلة.

شعرت ببرودة شديدة تلفحها وكأنها دخيلة على جو الغرفة الدافئة. حاولت ان تقف وهي لا تزال تتشبث بالغطاء. نظرت الى وجهه الجميل في تقسيماته وتكاوينه، فيما كانت عيناه الخضراوان تنعمان في براءة هانئة لا مثيل لها. وكأنه لم يخدع امرأة فيما مضى وهو على مشارف ان يستغل الثانية. فقد كان من المستحيل ان يكون ذلك الفكر المختبىء وراء هذا الوجه، ذلك الفكر الذي هو وراء هذه الموسيقى الجميلة قادراً على الخداع. إلا أنه، ومع الأسف، قام بكل ذلك. وكانت مادلين شريكته.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة الإرادة ان تكرهه، وخلصت الى كره ذاتها إذ كانت عاجزة عن كرهه. فقد كان بمقدوره ان يدخل قلبها ويقلبه بيديه.

لم تكد يده تلمس كتفها حتى تراجعت متعثرة الى الوراء ووجهها ملتوٍ وهي تجاهد في حبس دموعها.

ذهل الياس، فحاول ان يمد يده إليها مجدداً ولم يلبث ان تراجع مذعوراً لدى صراخها به قائلة:«لا! لا تلمسني.»

جمد في مكانه وهمس قائلاً:«يا للهول يا مادي، ما الخطب؟»

عضت على شفتها وبلعت ريقها لتخنق التشنج في حلقها. قالت:«ما كان يجب ان يحدث ما حدث في ليلة البارحة... لم يكن معك حق...» انخفض صوتها وتهدم السد الذي كان يكبح عواطفها فأرخت العنان لفيض من دموعها.

قال الياس وقد جمدت تعابيره في شبه صدمة:«انا أسف، يا مادي. لقد خلت انك تريدين ذلك ايضاً... لم أقصد إيلامك...» حاولت عيناه ان تخرقا وجهها وكأنهما لا تصدقان ما كانتا تشاهدانه خلال تجربة الألم، وهمس قائلاً:«يا للهول!» وراح يرنو الى أسفل وهو يمد يده الى حاجبه المتغضن. وعندما نظر مجدداً الى أعلى كانت عيناه قد فرغتا من كل المشاعر والأحاسيس. ومن دون ان يضيف كلمة استدار وانصرف.

بقيت مادلين تحت رذاذ الماء الدافىء أطول مدة ممكنة وهي تحاول ان تتخلص من فائض الدمع والاحاسيس التي انهمرت بقوة... تلك الاحاسيس التي كانت تهدد بالسيطرة عليها.

راحت تخاطب نفسها، انها تستطيع مواجهة كل ذلك، فيما كانت تفرك بشرتها حتى اصبحت حمراء اللون وقد ظنت انها بفعلتها هذه قد تخفف من وجعها الذي كان يعصرها في الداخل.

كانت فكرة مرافقة الياس وبيكي في السيارة نفسها قد ارعبتها إلا أنه لم يكن هناك متسع من الوقت لاتخاذ تدابير او اجراءات جديدة.

جففت جسدها بسرعة وسرحت شعرها المبلل ثم ارتدت فستانها الذي كان يصل الىاخمص قدميها والذي كانت ترتديه في حفلات تلامذتها. رمقت صورتها المنعكسة في المرآة بلا مبالاة فيما وضعت قليلاً من المساحيق على وجهها. وتذكرت ان ذلك الفستان العالي عند العنق كان يجعلها تبدو وكأنها في حداد، إلا أن ارتداءه في ذلك اليوم كان ملائما.

كانت الرحلة الى المدينة أشبه بكابوس كما توقعت. فقد جلست في المقعد الخلفي بناء على إلحاحها وهي تتظاهر بالنوم فيما راحت بيكي تحدث الياس في مواضيع شتى ابتداء بالهراء القائم في البلدة وانتقالاً الى المواهب الموسيقية لأحد الشبان من معارفهما.

كان الياس في مستهل الرحلة غاضباً وغارقاً في صمته غير ان احاديث بيكي جعلته أكثر ارتياحا. وعندما وصلوا الى المدينة، شعرت مادلين بصداع

لكثرة ما اغمضت عينيها في محاولة منها لمنع الاصوات القادمة إليها من المقعد الامامي.

اوقف الياس سيارته في احد المواقف وقد اضاء ارجاءه نور خافت وهتف:«ها قد وصلنا.» أوقف محرك السيارة والتفت الى الوراء لينظر الى مادلين قائلاً:«هل لا تزالين مستيقظة؟»

قالت وهي تتصنع التثاؤب:«تقريباً.» الا ان سرعان ما إقترن تصنعها هذا بالحقيقة فتثاءبت فعلاً.

«إذا، هيّا بنا.»

راحت مادلين تمشي وراءهما متباطئة وهي تلاحظ مرغمة الطريقة التي كان فيها الياس ينظر الى بيكي. ومن يا ترى يستطيع ان يلومه؟ فقد كانت اكثر جمالاً اليوم بفستانها الأسود المتناغم مع تكاوين جسمها. وكانت عيناها بما وضعت عليهما من الصباغات في غايةً الروعة والفتنة، فيما كان شعرها الأسود يتساقط حول كتفيها كالشلال الهادر، بألوانه المتدرجة في كل مرة كانت تفتل برأسها.

سيتم تصوير غلاف الاسطوانة في بهو المسرح حيث عزفت مادلين موسيقى الياس لأول مرة. وكان ذلك احدى مصادفات القدر. عندما اقتربوا من المسرح تراجع الياس وبيكي الى الوراء، وكانت مادلين هي أول من ارتد من المشهد الفوضوي الذي غمر المسرح. حتى البيانو الضخم بدا ضائعا وسط

الاضواء وعدسات التصوير والصراخ والضجيج. تقدم الشخص نحوها فجأة ويداه ممدودتان وكادت مادلين ان تبكي وهي ترى تلك الابتسامة الوضاءة المألوفة التي تبعث فيها الارتياح.

حياها دافيد هاتفا:«يا فتاتي!» فيما كانت ما تزال مندهشة وهي تحاول ان تبتسم ابتسامة من دون تصنّع.

راحت تحاكي نفسها، انظري إليه. فهل كان من الصعب ان تقع في حب هذا الشخص الفريد من نوعه بخصلات شعره السوداء وبريق عينيه المرح الذي كان يدخل في نفسها الراحة والأمان؟ وعلى كل حال فقد قال الياس ان دافيد يحبها. بالتأكيد قد تتعلم، مع الوقت، أن تبادله الشعور نفسه... لكنها نظرت الى الياس والى خطوط صورته الجانبية القاسية وأدركت انها لن تستطيع الوقوع في حب شخص آخر... طالما الياس شيبرد موجودا في العالم نفسه.

«اهلا، يا دافيد.»ردت على التحية بود صادق وابتسمت له ممتنة لمشاعره الصادقة نحوها ولكن ابتسامتها تلاشت حين راح يضمها الى صدره، اذ كان عناقه مختلفا عن ذلك الذي حضنها به في روزوود. فقد كان قاسيا وخاليا من المشاعر وكأنه هو ايضا كان يبتعد عنها. وفي اللحظة التالية ادركت سبب ذلك.

«دافيد؟» سمعت صوت بيكي وهي واقفة وراءها فيما

راحت مادلين تراقب وجه دافيد وهو ينظر من الى بيكي. وبدا وكأن بريق عينيه الكستنائي يذوب في ذلك الشعور الذي لا يخطىء والذي هو شعور الحب، وأصبحت ابتسامته اكثر نعومة.

اخذت مادلين تشاهد في اندهاش فيما هو يتقدم ليمسك بيكي ويشدها نحوه في عناق بعيد عن كل تجرد. فقد رأت ذلك في عينيه من قبل، وهي الآن ترى لمسة يده الناعمة موضوعة على خد بيكي.

شعرت مادلين بنيران الكراهية تتأجج في داخلها وحاولت ان تكبح شعورها في الاعتراض على هذه الحياة غير العادلة في ميزانها. اما بالنسبة لبيكي فقد كان الأمر سهلاً... إذ أنها لا تدّعي حب الشخص الذي أحبته مادلين فحسب، بل حب ذلك الشخص الوحيد الذي أحب مادلين.

وقفت وهي غير مصدقة ما تراه، في حين كان دافيد يقود بيكي والياس الى المسرح امام الكاميرا ثم هرول ليقف في الجهة الاخرى. ولم يكن للوقت قيمة بالنسبة لمادلين فيما كان المصور يلقي تعليماته ويضبط الأنوار على المسرح ويأخذ صورة بعد صورة لبيكي والياس الجالس خلفها. رأت كل ما كان يجري على المسرح ولكنها كانت تراه من خلال حجاب، وهي تنتقل الى مكان ناء حيث لا ينال منها الألم. وعادت الى وعيها حين صرخ المصور بغضب ظاهر

قائلاً:«لتعزف هذه الفتاة الموسيقى، قد يضعهما ذلك في الجو. ثم نجرب مرة ثانية.»

تنهدت مادلين وتحركت ببطء عبر المسرح لتجلس خلف البيانو. وراحت تنظر الى أسفل وعيناها فارغتان من كل تعبير وكأنها لم تر من قبل لوحة مفاتيح.

تناهى إليها صوت الياس من الوراء قائلاً:«اعزفي لحن الحب يا مادي.» فقد كان هذا عنوان أغنية الفيلم.

ارتفعت يداها بحركة آلية وهي تتساءل إذا كان عليها ان تطيع هذا الصوت دائماً، مهما كان طلبه، ثم انحدرت يدها اليسرى على المفاتيح وراحت تصدر ألحاناً وكأنها تنادي من اعماق روح رجل معذب.

وصمتت جميع الاصوات في البهو.

كان الجزء الأول من المقدمة حزيناً قاتماً يعكس يأسها... تماماً كالنمط الموسيقي الذي قرّبها من مؤلفات الياس في البداية،مع فارق وحيد. فعلى خلاف الموسيقى المملة الكئيبة التي هاجمها النقاد بقسوة، في هذه المقطوعة شيء مختلف... طبقة عالية راقصة تزداد ثلاثة اضعاف وتصدر بهدوء وبرشاقة عن الأوتار كالوعود المشرقة للربيع بعد عاصفة شتاء قاس.

انحنت مادلين على البيانو وهي تنتقل على أجنحة الموسيقى وشعرها الباهت الطويل يلمع كحبيبات بلور تحت الاضواء اللامعة.

كان انخطافها عظيماً حتى انها لم تلاحظ كيف كان

الناس في البهو مأخوذين بروعة الأداء وقد أمسكوا عن التنفس وكأنهم ينتظرون حدوث شيء ما... ولم تتعجب لتلك اليد التي امتدت فجأة لتضغط برفق على كتفها. وراحت الموسيقى تصدح عالياً وفي شبه رقصة مليئة بالأهازيج، وعرفت انها يد الياس.

وشعرت مرة اخرى بفيض روحه وهي تنساب من يده عبر جسمها وصولاً الى لوحة المفاتيح وكأنها صارت آلته كما كان البيانو آلتها.

كان الشعور عميقاً حتى انها أحست بقشعريرة تنتابها. بيد انها علمت ان شعورها هذا لن يطول أكثر من فترة الأداء هذه.

كان يسيراً عليها ان تغمض عينيها وتترك لقلبها ان يرتفع مهللاً بأصوات الفرح التي كانت أناملها تؤديها. كما كان الادعاء بأن الأنامل التي على كتفها تضغط بقوة وكأنه كان يعيرها بعضاً من قوته وهو يقرن روحه بروحها ويأخذهما الى اعلى، الى حيث لم يحلقا قبل الآن.

خلف عينيها المغمضتين رأت النجوم تضيء مثل شهب تلمع كالأسهم النارية في السماء المظلمة ويداها وقلبها والموسيقى ترتفع لتحية هذه النجوم. وفي مكان ما خلف الأغنية وعلى مسافة بعيدة، سمعت احد يصرخ:«هذه هي! هذا رائع! لا تتوقفي!» لكن الصوت بدا كأنه جزء من حلم انتهى عندما لامست

أناملها آخر وتر بانتصار. ثم حل صمت مطبق. راحت تسمع تمتمات خفيضة وهي تمزق الصمت القائم وترتفع نبرتها تدريجيا وكأن كل واحد حولها كان يصرخ او يهتف بهوس - ما عدا الياس، فقد كان ما يزال واقفاً خلفها. استطاعت ان تشعر بحضوره كما تشعر بدفء الشمس على ظهرها، ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

اصغت الى صوت وقع اقدام تنقر خشبات المسرح ورأت المصور يسرع باتجاههما، وبيكي ودافيد وبضعة آخرين كانوا يواكبونهم. وكانت وجوههم غريبة في إماراتها وكأنها متحيرة بين الضحك او البكاء.

سأل المصور مبهوراً: «لِمَ لم تأخذا معاً صورة الغلاف؟»

نظرت إليه مادلين وقد أربكها سؤاله.

تابع المصور قائلاً: «انني اقول لكما إنني التقط لكما معاً، صوراً في دقيقة واحدة اكثر مما التقطت في الساعة الأولى...» استدار بسرعة الى بيكي واعتذر قائلاً: «انا لا اتهجم عليك، يا آنسة. لقد بدوت رائعة مثلهما، لكن...»

ابتسمت له بيكي بشكل مدهش وقالت: «لا يجب عليك ان تعتذر. انا أفهم ما...»

قالت مادلين مقاطعة: «ماذا تعني انك التقطت صوراً لنا معاً؟»

«الصور، يا فتاتي.» تحرك دافيد ليجلس بجانبها

وأمسك بيدها ثم تابع كلامه: «ألم تشاهدي لمعان عدسة التصوير؟»

لم تعلم كم من الوقت بقيت جالسة هناك بمفردها عندما ظهرت بيكي فجأة بجانبها، وعلى وجهها قناع قاس من الغضب.

هزت مادلين رأسها من دون ان تتفوه بكلمة، وهي تتساءل كيف لم تنتبه لشيء واضح مثل لمعان عدسات التصوير... ثم اتضح لها كل شيء بعد ان تذكرت النجوم التي راحت تضيء كالشهب، والأسهم النارية التي رأتها خلف عينيها المغمضتين.

قال دافيد: «هيا، انا اعلم انك لم ترحبي بفكرة التقاط صورة لكما معاً لاستعمالها على غلاف الاسطوانة، لكن لا يوجد شخص في هذا المسرح، إلا ويعرف بالتحديد من يجب ان يحتل غلاف الألبوم... أنت والياس معاً.»

قال المصور: «لا يمكنك ان تخدعي الكاميرا، انت تعلمين ذلك. انت تمثلين صورة شخصين متحابين؟ خذي صورة اثنين متحابين!»

جمدت مادلين في مقعدها وأصبحت يداها فجأة باردتين في يدي دافيد. يا للهول، هل كانت شفافة لهذه الدرجة؟ هل لاحظ الجميع كيف تشعر تجاه الياس، بمجرد النظر الى وجهها؟ قالت بسرعة وهي تحاول ان تنفي ذلك قبل ان ينفيه الياس: «لا، هذا ليس

ما رأيتم. اننا نحب الموسيقى، ليس بعضنا بعضاً.»
بيكي علمت انها كانت تكذب، رأت مادلين ذلك في وجهها. فقد لمعت العينان البنيتان بكراهية جليدية بدت كأنها تحذير.
قالت مادلين في نفسها وهي تبتسم بألم، لاتقلقي، يا بيكي. قد أحب الياس، ولكنك لن تجدي أي منافسة مني. انك المرأة التي يحب.
نظرت بيكي وراء مادلين فجأة، واتسعت حدقتاها بشيء بدا كأنه تحذير ثم ضاقت عيناها فيما هي تنظر ثانية إليها وقالت حانقة:«عمل رائع، يا مادلين.» ثم استدارت حول المقعد بسرعة واختفت عن الأنظار.
تنهدت مادلين وأغمضت عينيها وهي تحاول ان تغوص الى الأعماق حيث لم يصل الألم، لكن دافيد لم يكن يسمح لها بذلك. كان لا يزال جالساً الى جانبها على المقعد، وذراعه فوق كتفيها وهمس في أذنيها:«انك تقتلينه، يا فتاتي. ألا تستطيعين رؤية ذلك؟»
قطبت جبينها وهي تتساءل لِمَ لا يقول أحد اليوم شيئاً معقولاً. فقط لو يدعونَها وشأنها، فقط لو تستطيع ان تختفي...
سمعت بيكي تنادي دافيد من مكان ما بعيداً عن خشبة المسرح، ابتسم بحزن وقفز بسرعة ليجيبها، ثم راقبت الآخرين بعدم مبالاة وهم يغادرون واحداً

تلو الآخر. العرض انتهى والجمهور غادروا، فكرت بحرارة.
لم تعلم كم من الوقت بقيت جالسة هناك بمفردها، عندما ظهرت بيكي فجأة بجانبها، وعلى وجهها قناع قاس من الغضب.
قالت بحدة وهي تشير بإصبعها باتجاه الباب:«حسناً، هيا بنا. بفضلك، سوف نذهب بمفردنا الى المنزل في سيارة دافيد. إيلي ذهب من دوننا.»
قطبت مادلين جبينها لهذا التطور الذي لا يبدو تصرفاً لائقاً. قد يكون الياس شعر بالإرتباك لما قاله المصور، وربما شعر بالغضب من كلام كهذا، قد قيل في حضور بيكي. ولكن ذلك ليس سبباً حتى يغادر بسرعة ويتركنا بمفردنا هنا.
سألت مادلين بصوت منخفض:«لِمَ كان يجب ان يغادر بمفرده؟»
فأجابت بيكي بفتور:«لا يحتمل وجودك معه. لهذا السبب. والآن لنغادر.»
هزت مادلين رأسها وهي شاردة، وغلفت نفسها في غطاء من اللامبالاة الذي عمل على حمايتها لسنوات طويلة.

الفصل الخامس عشر

جلست مادلين في مقعدها داخل السيارة متشنجة، فيما كانت بيكي تقود سيارة دافيد باتجاه روزوود في صمت مطبق يخفي وراءه غضباً شديداً. وراحت مادلين تخاطب نفسها قائلة ما الذي يجعلها غاضبة هكذا؟ فقد نالت اخيراً ما كانت تصبو إليه... عودة الياس الى روزوود وخروجي انا منها...

اعطت لأفكارها بعض الراحة في محاولة لتقييمها من جديد. فهي لم تدرك الا حتى هذه اللحظة انها استسلمت اخيراً للأمر المحتوم. فقد كانت مستعدة لمغادرة روزوود.

تنهدت ثم تحولت برأسها تتأمل الطبيعة المنبسطة امامها من خلال النافذة، وهي تفكر في المرة الأولى التي قادها فيها الياس الى روزوود. فهل كان ذلك منذ اقل من شهر؟ فقد بدا العالم مشرقاً كما مستقبلها في ذلك اليوم، في حين كان الربيع يتربع في كل الامكنة التي رنت بنظرها إليها. والغيوم الداكنة تلامس الأفق، احست بثقلها على كتفيها.

استهلت حديثها وقد تعبت من هذا الصمت المشدود بينهما فسألت بيكي:«كيف سيسترجع دافيد سيارته؟»

اجابت وقد ارتعش فمها بغضب:«... سأعيدها الليلة. فمن المفترض ان أبقى معه لتناول العشاء.»

تحولت مادلين وهي تنظر إليها، وقد تقوس حاجباها الشاحبان قليلاً وقالت:«ستتناولين العشاء مع دافيد؟»

رددت بيكي كلماتها على شكل ببغائي ملؤه السخرية قائلة:«نعم.. سأتناول... العشاء... مع... دافيد.»

«حسناً... ألا يمانع الياس في ذلك؟»

«ولماذا يمانع؟»

«لماذا يمانع؟ كيف تسألين عن ذلك؟ حتى أنه أخبر دافيد ان يبقى بعيداً عنك. في ذلك اليوم الذي ذهبا فيه الى بيتك ليتحدثا عن غلاف الاسطوانة...»

عيل صبر بيكي وهي تشد على فمها فقالت:«لا غرو في ان يكون دافيد متوتراً في ذلك اليوم.» وغمغمت كأنها تحدث نفسها:«لا مادلين. كان علي ان أخمن بأن الياس قد قال شيئاً من هذا القبيل.»

غمغمت مادلين وهي تنظر الى حيث ألقت يديها على حضنها:«كان عليه ان يتزوجك قبل أي شيء.»

قالت بيكي وهي تصرخ:«ماذا؟» فيما انحرفت السيارة قليلاً وقد تشنجت يداها وهما ممسكتان بالمقود وأردفت قائلة:«يا للهول! ما هذا الذي تقولينه يا مادلين؟»

رفت عينا مادلين وهي تنظر إليها مندهشة وسألتها:«ماذا؟ وما الرهيب في ذلك؟»

«ما الرهيب في ذلك؟ هل جننت؟ أتزوج أخي؟»
كانت بيكي تغلي غضبا... وإماراتها خير دليل على هذا... أما مادلين فلم تستطع ان تسمع ما كانت تتفوه به. ولبرهة من الزمن لم تعد تنصت إلا لاندفاع أفكارها المجنونة وهي تحاول ان تعطي معنى لهذا العالم الذي انقلب فجأة رأساً على عقب.
استطاعت اخيراً ان تهمس قائلة:«اخوك؟ هل الياس... اخاك؟»
ادارت بيكي وجهها ببطء وراحت تنظر إليها وقد تقوس حاجباها بريبة ظاهرة وقالت بحذر:«بالطبع هو أخي، ولكنه غير شقيق... انت تعلمين ذلك...»
وعندما رأت عيني مادلين تتسعان ورأسها يهتز في دهشة صامتة، وقد غادرت الريبة وجهها ليحل محلها عدم التصديق سألتها:«وكيف لا تعلمين بذلك؟» راحت تحملق في الطريق أمامها وكأن في تجاهل مادلين هذا ثمة خطيئة كبيرة.
همست مادلين وقد تحركت شفتاها قليلاً:«لم يخبرني احد بذلك.»
تابعت بيكي وهي تلح في سؤالها وقد تجهمت أساريرها:«ولكنك كنت تعلمين من أنا حين جئت الى المنزل في اليوم الأول. فقد قلت ان الياس اخبرك بأني قادمة...»
«قال لي بأنك قادمة، وإنك ستأتين كل يوم من القرية

لتطبخي وتنظفي المنزل... ولم يقل لي البتة انك أخته...»
صححت بيكي عباراتها هذه بسرعة آلية قائلة:«إني أخته ولست بشقيقته. فقد كنا من الأب نفسه... ومن والدتين مختلفتين.»
جلست مادلين وهي صامتة تحاول ان تتنفس، وان ترف بعينيها وهمست قائلة:«لما لا تعيشان معاً في المنزل نفسه؟»
هزت بيكي برأسها قائلة:«بعد طلاق والديه. تزوج والده من أمي وأنجباني. عشنا لفترة خارج البلد ولم التق بالياس ابداً الى ان حضر هو ووالدته الجنازة...» وبدأ صوتها ينخفض في نبرته فيما حاولت ان تستعيد السيطرة على أفكارها لبرهة ثم أردفت قائلة:«لم أكد انتهي من المدرسة حتى قتل والداي في حادث سيارة... وهكذا توفيا في رفة جفن... وأثناء الجنازة، قال لي الياس ووالدته ان لي عائلة في برايتون سكواير وقد حان الأوان لأن اتعرف عليها، هل تصدقين ذلك؟ انتقلت الى هناك بعد مرور سنة، وحتى يوم وفاتها كنت احب والدة الياس، كما كنت أحب والدتي على وجه التقريب.»
بقيت مادلين صامتة بدهشة وهي تلمح ظلال الياس تلوح في صورة بيكي الجانبية لأول مرة. وراح فكرها يتوقف عند كل الاشياء التي حصلت في روزوود وهي تحاول ان تجد مغزى لها او ان تدرك الحكمة من ورائها.

تابعت بيكي قائلة:«هذه هي الحكاية، على الرغم من أني لا أدرك الفرق الذي احدثته.»

اخذت مادلين تنظر أمامها، وما يكاد يرف لها جفن وقد أرخت يديها في حضنها، وتمتمت قائلة فيما كان صوت محرك السيارة يختنق:«كل هذا الوقت وأنا أظن انكما عاشقان.»

جمدت بيكي وهمست قائلة:«ماذا؟»

اومأت مادلين برأسها ببطء قائلة:«فقد كان واضحاً ان ثمة علاقة خاصة بينكما، في الطريقة التي كان يتحدث بها عنك وبالطريقة التي كنت تتصرفين بها عندما تكونان معاً... وأشياء أخرى بسيطة... وكنت أظن أنها...»

تأوهت بيكي وقالت:«آه، يا للهول.»

اضافت مادلين بهمس خفي:«وكنت تكرهينني، وبقدر ما كنت احب الياس بقدر ما كنت تكرهينني...»

تطايرت خصلات من شعر بيكي وهي تستدير لتنظر إليها وهمست قائلة:«تحبين الياس؟»

اومأت مادلين برأسها.

حدقت بيكي في الطريق أمامها لفترة من الوقت ورأسها يهتز بطريقة لا شعورية. ثم قالت من دون ان تنظر إليها:«لقد كنت اكرهك يا مادلين لأنني كنت أظن بأنك لا تحبينه. فقد دعاني في الليلة التي تعرف فيها إليك وطلب مني ان أحث الخطى وأسرع الى

المنزل لأنظف غرفة النوم لأنه كان مستقدماً معه المرأة التي كان ينوي الزواج منها، تلك المرأة التي اعادت إليه موسيقاه...»

امسكت مادلين عن التنفس وراحت تنظر إلى بيكي ثم قالت:«لم يقل لي ذلك ابدا. لم يقل شيئاً من...»

بدت بيكي غير موافقة وقالت:«بالطبع لم يفعل. فقد كنت عازفته، تماما مثل زوجته... فقد بدا الأمر شبيهاً بما حصل معه في المرة الأولى، وكان هذا الشيء يرعبه.»

تذكرت مادلين ذاك اليوم الأول الذي صرفاه في الاستديو، وقد كان الياس في غاية الحرص على ان يبقى تورطه العاطفي بعيداً عن تداخله مع موسيقاه...

تابعت بيكي قائلة:«إلا أنه لم يستطع ذلك. فقد كان مستحيلاً لديه ان يفكر فيك او ان يعتبرك مجرد صديقة... كما أنت تعلمين مما حصل ليلة البارحة.»

تحولت مادلين برأسها من جانب الى آخر لتنظر إليها ثم قالت:«تعلمين ما حصل ليلة البارحة؟»

تحولت قسمات بيكي أكثر جدية وقالت:«ما قاله لي فقط... من أنه استسلم لما شعر به منذ البداية، وأنه خاطر بكل شيء... وهذا الصباح طرحت كل شيء بوجهه.»

همست مادلين قائلة:«لقد حسبت انه يحبك، لقد حسبتها غلطة رهيبة...» وتلاشت كلماتها فيما راحت

تحدق في الزجاج الامامي للسيارة وقد ادركت ان الاخطاء قد بدأت تتراكم قبل الأمس بكثير، وقبل ان تتعرف الى الياس.

ابتسمت ابتسامة كئيبة وهي تفكر بكل ما اضافته الى صداقتها مع الياس والذي كان سبباً في القضاء على هذه الصداقة. فقط لأن احداً لم يحبها قط، فكرت ان لا احد يستطيع ان يحبها، ولأن الياس قد خدع مرة في حبه فقط ظن ان الحب هو الذي خدعه، وان شعوره بالحب لا يمكن الركون إليه مطلقاً. لقد انشغلا كثيراً بملاحقة دروس الماضي وفي الاستماع الى تحذيرات الذاكرة حتى أنهما اضاعا فرصتهما في المستقبل.

استغرقت في تفكيرها وهي تراقب طريق الأسفلت المنبسط أمامها وراحت تخاطب نفسها قائلة ان كثرة سوء التفاهم بينهما، منذ البداية، حدثت كلها لأنهما كانا جاهلين بما كانت الموسيقى تقول لهما. ونسيا ان الموسيقى لم تكن سوى تلك الأغنية الآتية من القلب.

أصلحت مادلين من جلستها وعيناها عالقتان في الطريق أمامها وقد اشتدت عضلات وجهها وهمست قائلة:«اسرعي يا بيكي. علي ان ارى الياس. علي ان ارجع الى المنزل.»

ابتسمت بيكي ابتسامة خفيفة، ووطئت دواسة البنزين وأعطت انتباهها للطريق أمامها.

الفصل السادس عشر

وقفت مادلين، بعد ان انزلتها بيكي من السيارة، لبرهة من الوقت في الحديقة الأمامية وهي تنظر الى المنزل، لون المظلات الأبيض اللماع، والى الشجيرات المصطفة بانتظام حول الباب الأمامي، والى كل تلك المتغيرات التي أحدثتها كي تقول للعالم اجمع انها مرت من هنا. ابتسمت لزنبقة الوادي التي أزاحت عنها غلافها وهي تشرئب الآن في ظلال الشجيرات الباردة وكأنها ترن أجراسها ترحيباً بها. وكانت الغيوم الداكنة وراءها تقبّل الأفق في رحيلها البعيد باتجاه الشرق فيما بقيت طبقات رقيقة منها لتخفف من وهج الشمس.

نادت وهي تدخل المنزل:«الياس؟» وأغلقت الباب خلفها ووقفت في المنزل الهادىء وهي تنصت الى صدى صوتها. فقد كان هذا الصمت لا يحمل لها في طياته أي بشرى إلا أنه كان بالنسبة لها واعداً في مضمونه. ولم يكن يشوب هذا السكون غير دقات الساعة الرتيبة، المتصاعدة من المطبخ وهمهمة البراد الخفيضة... كل أصوات المنزل كانت تدل على ارتعاش الحياة فيه، ولكنها تنتظر على أحر من الجمر للترحيب بعودة مالكيه.

لامست حاشية الفستان الأسود أرض الغرفة الخشبية بمداعبة لطيفة وهي في طريقها الى المطبخ. كما لامست يدها الجدار في خلال مرورها. وكان رأسها مرفوعاً وابتسامة ناعمة ترتسم على شفتيها.

ترددت قليلاً وهي أمام باب المطبخ وراحت تتساءل عما إذا كان المنزل والحب والعائلة في متناولها. فهي لم تعترض ابداً على مصيرها، ولم تشعر قط أنها خليقة بالحب لتسأل عنه جهاراً. وربما كان هذا جزء من السبب الذي حدا بالعائلات التي آوتها الى ان تستغني عنها...لأنها لم تدعها ترى كل ما يعتمر به قلبها من حب.

احست بثقل الماضي يرتفع عنها، بعدما كان جاثماً عليها، ليذهب بعيداً. وكانت قدماها ما تكادان ان تلامسا الأرض وهي في طريقها الى نافذة المطبخ لتنظر الى الخارج.

رأت الياس في الخارج، في حديقة وردها، من خلال الزجاج، مازال مرتدياً سترته السوداء التي ارتداها عند ذهابه الى المدينة. جاثياً على ركبتيه على قاعدة إحدى الشتلات ورأسه منكس وشعره الأسود يتحرك مع حركة يديه.

عندما خرجت لملاقاته، لم تشعر قط أنها امرأة سائرة لملاقاة الرجل الذي تحب، بل شعرت وكأن موجة دافئة، تحملها من واقعها الأسود الى شاطىء قدرها المشرق.

توقفت قربه وراحت تنظر في عينيه الخضراء اللون، التي كانت تبادلانها النظر.

قالت:«ملابسك غير مناسبة لعمل كهذا، يبدو ان علينا ان نجلب لك بعض الملابس الخاصة بالحديقة.»

رفع حاجبيه بحيرة وأحست مادلين بفيض مؤلم من حنانه يغمرها.

نظر الى سرواله وقد تلطخ بالتراب، هز بكتفيه لا مبالياً. عندما نظر إليها مجدداً أجفل قليلاً، فيما راحت مادلين تتساءل إذا كان هذا التحول الحاصل في كنهها كان ظاهراً على تعابير وجهها. وللحظة واحدة ارتفعت الستارة الدفاعية عن عينيه ولمحت مادلين بريق أمل وتوق، وألم كل انعكاسات احاسيسها القديمة، ثم هبطت الستارة ثانية وتحول وجهه الى البرودة.

قال:«لا احتاج الى ثياب البستنة. فلا أنوي البقاء في روزوود.»

كان احساساً غريباً ان تبتسم لكلمات كانت ترسلها لتحلق عالياً منذ فترة قصيرة من الوقت. فلا يهم إذا كانا سيغادران روزوود لأنها باتت تعلم الآن المنزل الذي تاقت إليه لم يكن مكاناً، حتى وان كان مكاناً احبته كهذا.

قالت بهدوء:«حسناً، إذا كنت تريدنا ان نذهب الى مكان آخر، فسنذهب.»

نظر إليها ووجهه خالٍ من أي تعبير وقال:«عم تتكلمين؟ عليك ان تدركي أكثر من أي شيء أننا لن نعمل سوية بعد الآن... فهذا... صعب.»

سألته وهي تحاول ان تبقى نبرة صوتها خفيضة:«لماذا؟» وفي داخل نفسها كانت تصرخ فيه ليتفوه بها، ليتفوه بها جهاراً مرة واحدة فقط، لو كانت بيكي محقة من أنه أحبها كل ذلك الوقت، لماذا لا يقول ذلك؟

غمغم قائلاً وهو لا يزال على الارض:«تعلمين تماماً السبب.»

ألحت عليه قائلة وفي صوتها ارتعاش:«قل لي، اريدان اسمعها منك تقولها جهاراً.» وكانت يداها ثابتتين الى جانبيها وجسمها منحنٍ الى الامام. فقد كان مستقبلها متوقفاً على جوابه.

رمى بحفنة من التراب على الارض ووثب واقفاً وأردف قائلاً:«هل تريدين سماعها عالياً؟ حسناً: لأني لا استطيع العمل باتفاق كهذا! لا استطيع ان اتابع هكذا وأنا ادعي ان كل ما أحس تجاهك هو محض صداقة...» أغمض عينيه بهدوء فجأة وارتخت كتفاه وتابع قائلاً بهدوء:«لا يزال الحب يعترض طريقنا. لقد قلت لك كل ذلك.. في ذاك الصباح الذي كان فيه دافيد في المنزل. اتذكرين؟»

عكس وجهها لحظة من الألم. وراحت تتذكر ذلك

الصباح وما قاله لها الياس في ان الأحاسيس قد تداخلت مع علاقتهما المهنية منذ البداية، إلا انها اعتقدت انه كان يتحدث عن عواطفها وأحاسيسها هي لا أحاسيسه هو. تمتمت قائلة وقد صفعتها أصوات الكلمات:«انت تحبني؟»

التوى فمه بابتسامة وراح ينظر الى جهة واحدة. وأجابها بنبرة جافة:«لقد كان أكثر مما كنت تراهنين عليه. وقد كان ذلك واضحاً ايضاً.»

الآن اصبح كل شيء تحت المجهر، وبطلت الادعاءات.

قال:«هل انت راضية الآن؟» استدار برأسه ونظر إليها. وجفل حين رآها تبتسم لألمه، فقال:«اعتقد ان عليك ان تحزمي امتعتك، يا مادلين، سأقودك الى المنزل.»

تذكرت تلك اللحظات التي كان فيها الناس يقولون لها ان عليها ان ترحل... اغمضت عينيها لبرهة وشدت على فكها بحزم، وقالت بهدوء:«انا في منزلي.»

استدار بوجهه ببطء لينظر إليها. وبدأ وجهه الجميل يتلاشى ويظهر من أمام عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع. تابعت:«لقد علمت أني في منزلي في اليوم الأول الذي رأيت فيه وجهك.» ثم اضافت بما يشبه الهمس:«لم أكن أظن انك تريدني.»

فغر فاه وخرجت كلماته في دهشة، أشبه بالهمس:«لم تكوني تعتقدين انني كنت اريدك؟»

ارتعشت شفتاها فيما كانت تومىء برأسها وترف برموشها وهي تراقب عينيه وقد اسودتا كمن كان خائفاً من ان يفرح لعلمه بأنه سينتشل منه. إنها نظرة تعرفها جيداً لكثرة ما كانت تنظر إليها في المرآة. وكانت هناك اشياء كثيرة ترغب في قولها له، وفي حاجة للشرح إلا ان الوقت لم يكن ملائماً.

ابتسمت له وهي تبكي، تتعجب كم كانا يتشابهان في نواح عديدة... ما عانياه من النبذ حتى انهما تعلما ان يخافا من الحب نفسه. فقد اعمى الخوف بصيرتهما، فلم يستطيعا ان يريا الحب في عيون بعضهما بعضاً.

همس بإسمها وعيناه تجولان على وجهها ثم تضيئان بخضرة الربيع الواعد بعد فترة من الشتاء الطويل.

قال هامساً:«انت تحبينني، يا مادي. انت تحبينني...»

أمسك بها من كتفيها وقد ضاقت حدقتاه وقال لها:«قولي لي إنك تحبينني، يا مادلين قوليها عالياً.»

تحركت شفتاها وهي تحاول ان تجد الكلمات التي لم تتفوه بها بعد، ثم عانقها قبل ان تنبس بكلمة. وهمس في اذنها قائلاً:«قولي إنك تحبينني.»

شعرت بكلمات لم تتفوه بها قبلاً تطير هاربة من فمها.

اتسعت عيناها للحظة، وهي تشاهد هالة الغيوم

التي تحيط بوجه الياس، وقد مزقتها الرياح اخيراً ونثرتها. ومن خلال الستارة البيضاء والنور والدفء وبالقرب من الياس ومادلين. تفتحت أولى براعم الورد لتستقبل قبلة الحياة.

تـــمت

www.rewity.com